

رعب فى مسرح سكالا

دينو بوتزاتى



ترجمه
سيد عبد الخالق







رعب فى مسرح سكالا

هذه هي ترجمة كتاب

Scala Scare.

رعب في مسرح سكالا

By

Dino Buzzate

رعب في مسـرح سكالا

دينو بوتزاتي

حقوق النشر محفوظة لدار سندباد للنشر والتوزيع

• • • • •

الطبعة العربـيـة الأولى ١٩٩٩

لوحة الغلاف : فرنـــاندو بــــونيرو

رقـم الأيـداع :١٠٩٠٦/ ٩٩

الترقيم الدولى . **I.S.B.N.**

٩٧٧ - ٥٩٦٦-٠٥-١

رعب فى مسرح سكالا

دينو بوتزاتى

ترجمة

سيد عبد الخالق



سندباد للنشر والتوزيع



1

ليلة افتتاح أوبرا جروسجيموث " مذبحة الأبرياء " ، علي مسرح" سكالا[1] لم يتردد "المايسترو كلوديوكوتيس" في اختياره ربطة عنق بيضاء تحت سترة خطافية طويلة لحضور العرض . وفي ذلك الوقت من شهر آيار ، وبينما تمضي الأمور علي خير ما يرام الصفائيون [2]يرون أن موسم سكالا المسرحي يتردّى إلي أسوأ حال له ؛ فقبل وقت، كان الجمهور غالباً ما يتألّف من وافدين أجانب ، وكانت تقتصر العروض التى تقدم لهم علي أوبرتات هادئة، تخلو من التقنيات المعقدة ، وتُنتقى دون جهدٍ من مخزون التراث التقليدى . وإذ ذاك لا يهم ما إذا كان قائدو الفرقة من بين الشخوص المغمورة ، أو أن مغني الأوبرا كانوا من بين ممثلي سكالا النمطيين الذين لا يثيرون فضولاً لائقاً من جانب النظارة.

وفي ذلك الوقت من العام ؛ علي مدار أكثر شهور المواسم قداسة ، كانت طبقة النخبة تحظى بقدر من الحريات يُمكن للبعض اعتبارها شائنة . فلقد كان مما يدل علي تربية مهذبة أن ترتدي النساء فساتين يومية بسيطة بدلاً من ثياب سهرة كاملة ، بينما يحضر الرجال في بزاتٍ رمادية داكنة فوق ربطات عنق ملونة ، كما لو أنهم في زيارة اجتماعية لعائلة مجاورة . غير أن بعضاً من أصحاب العضوية الدائمة حملوا كبريائهم الوضيع ، أو حَمَلَهم ، إلي مرحلة صار يتعذر معها استمرارهم،بينما لم يتنازلوا في الوقت نفسه،عن مقاعدهم فظلت شاغرة "بل إنهم كانوا يحبذون أكثر أن يلاحظ أقاربهم هذه المقاعد وهي خلو''منهم!"لكن هذا المساء الفريد ، كان يمثل عيداً بهيجاً وقد باتت أوبرا " مذبحة الأبرياء " حدثاً في حد ذاتها لِما كانت أثارته من جدل ، راح يتردد في قطاع كبير من أوروبا عقب عرضها في باريس قبل خمسة أشهر . وكان الموسيقار الألماني " بيير جروسجيموث " قد وصفها

بقوله :"إنها موشحة دينيـة ، فـى اثـني عشر مشـهداً ، تتـوزع بـين الغنـاء الجمـاعى والصولـو" وقيـل أنـه ، مـن خلالها ، راح يغير من اتجاهاته مرة أخرى ، وأنه – فـى هذه السن المتقدمة من حياته – يعتمد لغة مسـرحية أكـثر جرأة وإثارة للقلق عنه في أى مرحلـه سابقة . وباعتبـاره الشخصية الأكثر بروزاً فى ذلك اليـوم ، فقـد أعلـن أنـه ، بعد انتظـار طويـل (يـرد الأوبـرا إلي أجـواء مـن الحقيقـة منسيةٍ يستدعيها مـن منفاهـا الثلجـى ؛ حيــث كــان " كميائيون" قد حفظوها هناك كـى تظـل تحيـا علـي أدويـة ثقيلة عسيرة الهضم). أما أنصاره فقد راحوا يزعمون بأنه استطاع التحرر مـن إطـلالات المـاضي المباشـر ، كـى يعـود "وأى عـودة! " إلي التقـاليد المســرحية المجيــدة بــالقرن التاسع عشر . بل إن بعضهم ذهـب في ذلـك إلي القـول بـأن ثمــة صــلات قربـي قويــة بينــــه وبــين التراجيديــا الإغريقية.مـع هـذا كـان الضجيـج المصـاحب للأوبـرا إنمـا يرجـع فـى الحقيقـة إلي أصدائـها السياسـية الواضحــة .

جروسجيموث، رغم أنه كان قد عاش لسنوات طوال قرب جرينوبل ، إلا أن أحدا لم يكن يجهل أنه من أصل ألماني صريح ؛ يعززه مظهر بروسي رققته السن وممارسة الفن. وعلي مدار تاريخ هذا الرجل ، لم يكن يند عن سلوكه ما يمكن أن يؤخذ عليه . وعندما دعاه الألمان ، ذات مرة ، ليقود " كونشيرتو خيرية " فإنه لم يستطيع أن يرفض رغم ما أشيع عنه سلفا بأنه يقف إلي جانب صفوف " الجبهة الأخرى " وأنه يسرف فى مناصرته لمقاتلي الضواحى الماكيين[3]. لقد كان يبذل طاقته كى يتجنب اتخاذ موقف واضح ، حتى أننا ، خلال تلك الأشهر الحرجة قبل التحرير، لم يكن بإمكاننا أن نسمع صوت البيانو ـ جزعا كان أو أليفا– يصدر عن شرفته . لكن جروسجيموث كان فنانا عظيما بلا شك ، بل كان من السهل علينا نسيان تلك المرحلة العصيبة من حياته حتى إن لم يكتب " مذبحة الأبرياء " .كانت الموشحة ، التى أعد نصها الأوبرالى شاعر فرنسى صغير ؛ هو فليب

لاسال ، مأخوذة عن حكاية دينية ؛ وكان التفسير الأقرب إلي الصحة حول مغزاها هو أنها تمثل استعارة رمزية للمذابح النازية حيث يظهر "هتلر" ممثلا فى شخصية "هيرودس" (4) الكريهة.

لكن نقادا ، من جبهة اليسار المتطرفة ، راحوا يتهمون جروسجيموث بأنه يلمح فى خفاء – تسترا تحت عباءة هذه الاستعارة المضللة علي نحو واضح – إلي " تطهيرات " المنتصرين ، فى الوقت الذى يختذل فيه أعمالهم الانتقامية فى عدد لا يحصى من القرى والتى بلغت أوج بشاعتها في مجازر " نورمبرج" بل إن البعض ذهب فى ذلك مدى أبعد ، فاعتبر " مذبحة الأبرياء " بمثابة نوع من الإرهاصات المبكرة بنذر انتفاضة،وتحذير فى الوقت نفسه لأولى السلطة كى ينهضوا لقمعها في الوقت المناسب : إنها عمل تجديفي فى حقيقته ، باعث علي التحريض وذو طابع يغلب عليه الانتماء إلي العصور الوسطى !

وكما يمكن لنا أن نتوقع ، فقد أنكر جروسجيموث قصده إلي هذه الإيعازات في كلمات قليلة باردة : (مذبحة الأبرياء هي ، بشكل ما ، شهادة علي الإيمان المسيحى ، ولا شئ أكثر) لكن الحرب لم تهدأ بل راح أوارها يتأجج علي صفحات جريدة " برومبيير الفرنسية، " وظلت تلوكها بقية الصحف طيلة أسابيع طويلة بطريقة لا تخلو من تحريض سافر.ومن جهة أخرى ، تصاعد الفضول نحو الصعوبات الموسيقية التى يثيرها العرض ، وكذا إلي الأدوات المسرحية المستخدمة - والتى وصفت بأنها خيالية - والرقص المصاحب وألحانه التى قدمها الموسيقى الشهير " جوهان مونكلار " الذى أتى خصيصا لهذا الغرض من بروكسيل . وكان جروسجيموث قد وصل ميلانو قبل أسبوع فى صحبة زوجته وسكرتيرته الخاصة كى يحضر البروفات ، والعرض بطبيعة الحال . جملة هذه المقدمات ، وغيرها ، خلفت انطباعا قويا بأن الحدث ذو طابع استثنائى . لقد كانت "السهرة " التى لا يمكن

نسيانها على مدار الموسم كلـه ،والتـى جذبـت إلى ميلانـو كوكبة هائلة من كبار نقاد إيطاليـا ومؤلفيـها الموسـقيين ، فضـلا عـن عـدد غـير قليـل مـــن تلاميــذ جروســجيموث المتحمسين الذين حضروا مـــن بـاريس ، فـي الوقـت الـذى أصـدر فيـه رئيـس شـرطة المدينـة أوامـر بتعبئـة جنــوده وضباطـه تحسـبا لأى مـن حـــالات الشــغب أو التظـــاهر المحتملة وكـانت الضـرورة الطارئـة قـد دعـت بعضـا مـن الموظفين الرسميين وعددا كبيرا مـن ضبـاط الأمـن الخاصـة بمسـرح سـكالا ، إلى الانتشـار بأمـاكن أخـــرى، ذلــك أن تهديدا مغايرا ، باعثا على المزيد من القلق ، كان قد فرض نفسه فجأة فى فـترة مبكـرة مـن المساء . دلالات ومظـاهر شتى تؤكد بـأن ثمـة هجومـا محتمـل الوقـوع ، ربمـا فـى الليلة نفسها، على يد جماعـة " مـورزى " الشـهيرة . ولم يخف زعماء الحركة ، واسعة النشاط ، أن هدفـهم المطلـق إنمـا هـو الإطاحـة بالنظـام القـائم ، وتأسـيس مـا يمكــن تســميته" العدالــــة الجديــــدة " . طفـــرت بــــالفعل

بعض الاضطرابات الظاهرية في الأشهر القليلة المنصرمة .
فقد كانت الجماعة فى ذلك الوقت تقاطع التعامل مع قانون الهجرة الداخلية الذى كان البرلمان الإيطالى على وشك التصديق عليه وهى ذريعة يمكنهم ، إذن ، الاستناد إليها كمبرر لاقتراف مثل هذا الهجوم الشامل .

وكان قد لوحظ ظهور بعض المجموعات الصغيرة من الأشخاص المحرضة بالشوارع والميادين المطلة على وسط المدينة ، طيلة اليوم ، من غير أن يحملوا شارات معينة ، أو رايات أو أعلاما. لم يميلوا أبدا إلى تكوين تشكيلات خاصة أو مواكب تظاهرية ، ومع هذا كان من السهل تخمين هوياتهم وأهدافهم على الفور . ولم تكن ثمة غرابة بالقطع فى قيام مظاهرات سلمية أو هادئة ، من قديم ، تثور بين آن وآخر ، وليس غريبا أيضا أن تسمح السلطات بحدوثها وتمريرها دون أذى . ولكن هذه المرة كانت قيادات الشرطة العامة تضع أيديها على معلومات خطيرة تدفع بها إلى الاعتقاد بأن ثمة محاولة

كاملة للاستيلاء على السلطة خلال الساعات القليلة المقبلة. وعلى الفور ، سرى الخبر فى أنحاء روما بأسرها ، ووصلت الأوامر إلى رجال الأمن وكذا جنود المهمات القتالية [5] بفرض حالة التأهب القصوى ، فضلا عن استدعاء بعض فصائل الجيش الخاصة . ومع هذا لم يكن هناك ما يمنع من اعتبار ذلك كله من قبيل الإنذار الكاذب. فقد حدث ذلك من قبل ، كما أن ترويج مثل هذا النوع من الشائعات كان دوما إحدى وسائل " اللهو " المفضلة لدى جماعة " مورزى ".

وعلى نحو ما يجرى عادة فى مثل هذه الأحوال فإن توجسا بالخطر ، كتيما ، غامضا يسرى سير الهواء عبر أرجاء المدينة . لم يكن هناك مبرر واضح لهذا الشعور ، بل ليست هناك شائعات محددة بعينها . لا أحد يعرف شيئا على وجه اليقين . ورغم ذلك ، كان التوتر يعلق بالهواء . أسرع كثيرون إلى بيوتهم فور انصرافهم من مكاتبهم ، يحدقون فى كل ما تقع عليه عيونهم عبر

الطريق ، فى قلق باد ، ويتوقعون بـين لحظـة وأخـرى أن يلوح لأعينهم قداس جنائزى هائل يسد عليـهم الأفـق . لم تكن هى المرة الأولى التى يتهدد فيها أمن المدينـة حتـى أن أهلها ربما ألفو هذا النوع من التوتر العام . وربما فى ذلك ما يفسر قرارهم الجماعى بالعودة المبكرة كما لو أنهم على يقين من أنها ليلة مثل كل الليلات الأخـرى .بعضـهم راح يعلق على الحالة قائلا :"إنـها ظـاهرة شيقة" . فرغـم أن نذر الخطر قد بدأت تزحف نحو قلب المدينة . فـإن أحـدا لم يسـتطع أن يتفـوه بشـيء صريـح حيـال ذلـك . دارت الحوارات المسائية الاعتياديـة ، ولكـن بلهجـة مغـايرة ، لهجة مفعمـة بالتلميحـات السـرية أكـثر ، وودع بعضـهم بعضا وضربوا المواعيـد لليـوم التـالى دون أن يومـئ أحدهـم بشيء . فكل لم يكن يريد أن يفصح عن شيء هـو ، بشـكل أو بآخر، الموضوع الوحيد الذى يشغل ذهن الآخر ، كما لو أن الحديث عنه بإمكانه أن يقطع ذلـك الوصـال الأثـيرى، يفسد تلك التعويذة السـحرية بالأمـان . بـالضبط كمـا هـى

الحال على متن سفينة حربية حيث يكون محرما أن يتلفظ أحدهم ، ولو على سبيل المزاح ، بكلمات من شاكلة " القذائف " أو " الصدامات " !

2

لم يكن أحد ، في روما بأسرها يمكنه أن يكون أقل دراية بما يحدث من المايسترو "كلوديوكوتيس"!

لقد كان شخصا مخلصا إلى حد الغباء أحيانا ، ولا وجود لشيء يعنيه خارج الموسيقى . كان روماني الأصل "رغم أن قليلين هم من يعرفون ذلك" ، أستقر في إيطاليا إبان عصرها الذهبي مطلع هذا القرن ، مثل كل شباب هذه المرحلة ، عندما بدأ نضجه المبكر ، المذهل ، يجر عليه شهرة عريضة سريعة كعازف بيانو ماهر ، حتى بعد أن هدأت حوله عاصفة التحمس العام ، ظل عازفا بارزا ، ينتمي أكثر إلى الطراز الرقيق منه إلى الطراز القوى ،

فانفتحت أمامه الطريق لزيارات متكررة لعدد من العواصم الأوربية فى جولات فنية بدعوة من المحافل الموسيقية الشهيرة هناك وظل هذا المنوال على حاله حتى عام 1940، مخلفا وراءه ذكريات ألقة لا تنسى ؛ هى كل هذه النجاحات التى يتردد ذكرها دوما فى حفلات سكالا السيمفونية . وفى تلك الأثناء ، استطاع أن يحصل على المواطنة الإيطالية وأن يتزوج فتاة من ميلانو ، ثم عين بعدها أستاذا لدراسات البيانو المتقدمة فى معهد الكونسر فتوار ؛ المهنة التى كرس حياته يؤديها على أكمل وجه من الأمانة والاستقامة . وإذ كان ذلك ، أحس كوتيس بأنه مواطن من أهل ميلانو الأصليين ، حتى أن قليلين فى الحقيقة ممن حوله ، كان باستطاعتهم التحدث بهذه اللهجة على حد يفوقه .

ورغم تقاعده – إذ يكتفى الآن بالقيام بدور المحكم الشرفى فى بعض امتحانات الكونسر فتوار– فإن الموسيقى لا تزال هى المبرر الوحيد لوجوده لا يلتقى غير موسيقيين

أو عشاق موسيقى، ولا تفوته حفلة موسيقية أينما كانت ، فى الوقت الذى يتابع فيه بغير قليل من " الخوف " مشوار حياة ابنه الموسيقار الصغير الواعد " أردوينو كوتيس " البالغ من العمر إثنين وعشرين عاما . أقول " بغير قليل من الخوف " ذلك أن أردوينو كان شابا يتسم بالحيطة والتحفظ وقلة البوح ،ضنينا فى فتح قلبه ، وحساسا بدرجة مفرطة أغلب الظن . ومنذ وفاة الزوجة ، والاضطراب والعجز يدبان فى قلب الأب ، فى الوقت الذى انغلق فيه الابن على ذاته وحياته الخاصة . لم يستطع مرة أن يفهم ذلك الولد الصغير ، لم يعرف أى نوع من الحياة يعيش ولقد أدرك آخر الأمر أن كل نصائحه ، حتى نصائحه الموسيقية ، إنما تذهب سدى،أو يضرب بها عرض الحائط !

لم يكن كلوديو كوتيس وسيما على نحو لافت ، وإنما – وهو يخطو الآن نحو السابعة والستين – كان يبدو حسن المظهر ، على النحو الذى يمكن اعتباره زخرفيا ، وثمة

تشابه طفيف مع "بتهوفن" راح يتضح أكثر فأكثر مع تقدم العمر ، ولعله كان يغتبط لهذا الشبه ، إذ راح يولى عناية كبيرة بشعره الأبيض الأزغب الذى كان يضفى على طلعته هالة فنية " ملموسة . هذا البيتهوفن " طلق المحيا ، فيما تخلو حياته من المآسى الجليلة، كان شخصا اجتماعيا حبورا دائم الابتسام يميل إلى أن يحدس بالمحبة ، تقريبا، فى كل مكان يذهب إليه . تقريبا ، أقول ، إذ نادرا ما كان يقاوم إبداء ازدرائه إذا ما تعلق الأمر بأحد عازفى البيانو على وجه التحديد . كانت نقطة ضعفه الوحيدة فى الحقيقة . لكن أحدا حوله لم ينتبه إليها على الاطلاق . " حسن يا مايسترو " يقول واحد من أصدقائه فترة الاستراحة " أنه يروق لى تماما " وهو يشير إلى العازف " ولكن ماذا يا ترى يقول بيتهوفن؟ " وفيما إعجابك ؟ يقول كوتيس " إنك لم تسمعه بالفعل . أليس كذلك ؟ أو لم تكن ذاهبا فى النوم ؟ " ويخوضون فى تبادل القفشات التقليدية المشابهة ، سواء أكان العازف هو

"باكوس " أو " كورتون " أو " جيسكينج " . كانت روحه المرحة هى ما جعلت منه شخصا محبوبا من قبل الجميع – هو الذى لم ينل منه الأسى لكون سنه المتقدمة قد حالت بينه وبين ممارسة الفن – كما وفرت له تعاملا خاصا مميزا داخل أروقة سكالا . ولم يكن عازفو البيانو يعتادون المشاركة فى مواسم الأوبرا على الإطلاق ، أما حضور كوتيس ، فى تلك الأمسيات العصبية ، فقد كان من شأنه أن يشيع جوا من التفاؤل بين الحضور ، ومهما يكن من أمر ازدرائه ، فهو على يقين من تصفيقه آخر الأمر . وأغلب الظن أن حضور " قدوة " مثله ، بشهرته العريضة القديمة، إنما هو بحد ذاته حدث بالأمكان أن يحمل الكثيرين على تخفيف كراهتهم للأوبرا ، يقنع المترددين حيالها ، ويحفز من يعوزهم الحماس لإظهار إعجابهم دون تردد ، ودعك من وجوده المميز داخل سكالا أو أمجاده القديمة داخله كعازف . ولهذا كان اسمه قد اندرج ضمن قائمة الأعضاء الشرفيين الدائمين ، تلك القائمة

السرية المراقبة على نحو شديد الحرص . وفي صباح كل عرض موسيقي كان يصله – على صندوق بريده الخاص في 7 طريق ديللا باسيوني – مظروف يحوى تذكرة مقعد أمامي. وفي أحيان أخرى كان المظروف يحوى تذكرتين إحداهما لابنه ، فيما لو أنهم عهدوا بالإرسال إلى مكتب البريد منخفض التكاليف ، غير أن أردوينو لم يكن يعبأ بمثل هذه الدعاوى . كان يفضل دوما القيام ببعض الترتيبات الخاصة مع أصدقائه ، أو الذهاب إلى بروفة الملابس [6] النهائية ، تلك التي لا تتطلب منه ارتداء زى رسمي خاص .

هكذا كانت الظروف التي صاحبت عرض " مذبحة الأبرياء " .

3

وكان أردوينو ، فى الليلة الماضية ، قد استمع إلى البروفة النهائية ، وراح يناقشها مع والده على الغداء ، بتلك المفردات المبهمة التى تألفها أذن الأب دون أن يعيها تماما . كان يتحدث عن أشياء من مثل " الحلول الشائقة للنسيج الصوتى .. البوليفونية عميقة الأداء .. الكتابة الصوتية التى هى استدلالية أكثر منها استقرائية " "ونطق هذه العبارة الأخيرة بازدراء بين" . غير أن الأب على ذكائه لم يكن فى وسعه أن يستنتج ما إذا كان العرض جيدا أم لا ، ولم يكن يعرف كذلك ما إذا كان أردوينو يحب عمله . لم يخرج بشيء . لقد تعود هذه اللهجة الغامضة والتى كان يقف حيالها عاجزا خائب الأمل كلما حاول أن يجابهها.

4

كان وحده بالبيت الآن . انصرفت الخادمة قبل وقت . وكان أردوينو يتناول عشاءه بالخارج والبيانو" شكرا للسماء "صامتا . لم يتفوه بها كوتيس . فقط كانت كامنة في قاع قلبه ؛ قلب فنان عجوز لم تعد لديه شجاعة الاعتراف بها .

وفيما يكون أردوينو أمام البيانو ، يعتصر الألم كوتيس من فرط ما يشعر به من اضطراب عميق . بشوق بدني ، بدني فحسب ربما ، يظل يهفو لأن يرق هذه النغمات المبهمة المربكة ، تلين فينطق شيء أي شيء يشبه الموسيقى. يعرف أنه الضعف أمام استماع القديم وأنه قد صار من المستحيل أن يعيد كرة الزمن . قال لنفسه: "أيا كان ذلك الشيء الذى يمنح المرء سعادة فلا بد من تجنبه إذا ما كان يمثل علامة تذكر بالشيخوخة

العاجزة والحنين إلى الماضى ". كان يعلم أن الواجب الأسمى للفن الجديد هو أن يؤلم مستمعه وأن فى ذلك الألم إنما يكمن المبرر الوحيد لصلاحيته . يعرف ذلك غير أنه لم يستطع أن يستجيب إليه على غير ما اعتاد . كان ينصت وهو قابع بغرفته القريبة يضغر ما بين أصابعه بشدة حتى تكاد تتحطم مفاصلها كما لو أنه بمثل هذا الجهد سيكون فى إمكانه أن " يحرر" ابنه ، لكن أردونيو لم يتحرر بطبيعة الحال وظلت تتراكم "النوت" الموسيقية المجهدة الواحدة تلو الأخرى فى اضطراب أكبر واستمرت تعلو بين أرجاء البيت تلك النغمات الشاذة أكثر عدائية وعلق الأمر برمته فى الهواء أو طرح به أرضا عبر سلسلة من الصدمات العنيدة المتعاقبة ." فلتحفظه السماء" يقولها فيما يباعد بين يديه يأسا وبين أوصال كفيه تسرى رجفة خفيفة كما لو أنه يشرع فى إشعال سيجارة .

5

وبينما كان كوتيس يتأهب تسللت إلى غرفته نسمة دافئة عبر النوافذ المفتوحة وملأت روحه بشعور بالطمأنينة . كانت الثامنة والنصف غير أن الشمس لم تزل مشرقة . وكان يواصل ارتداء ملابسه لما دق جرس الهاتف عاليا : هل المايسترو موجود ؟

سأل صوت غير مألوف لأذنيه .

- نعم أنا المايسترو كوتيس .
- هل أنت المايسترو أردوينو كوتيس ؟
- كلا أنا والده ؛ كلوديو كوتيس .

فانقطع الخط عند الطرف الآخر على أثر انغلاق السماعة !

رجع إلى غرفة نومه فعاد الجرس يرن ثانية .قال الصوت نفسه بلهجة تقترب إلى الوقاحة:

لكنــك لم تخبرنـــا بمـــا إذا كـــان أردونيـــو موجـــودا أم لا !

- لا يا سيدى غير موجود

أجاب كوتيس فى لهجة حاول مـن خلالهـا أن تكـافئ برودة الطرف الآخر

- أوه ، كم أن هذا سيء للغاية بالنسبة له !

قال الطرف الآخر، وانغلقت السماعة فى عنف!!

وأطرق كوتيس قليلا : يا له من سلوك وقح ! من عساه يكون المتحدث ؟ أى نـوع أحمـق مـن الأصدقـاء يختلـط بـه أردوينو هذه الأيام ؟ ثم ما معنى " ســيء للغايـة بالنسـبة له"؟

تركته المكالمة فى حيرة من أمره ولحسن الحـظ أنـها لم تستمر لأكثر من ثانية . ألقى علـى نفسـه نظـرة فـى مـرآة الدولاب وقد انتهى من ارتداء البذلة .كانت تبدو فضفاضة بعض الشيء على الطراز القديم الذى يناسبه ولو أنـها فـى الوقت نفسـه لا تنـم عـن كلفـة أو تقـاليد محافظـة . وكـان

يرتدى صدرية سوداء تحتها كى لا يبدو منصاعا لسطوة الموضة السائدة التى لا تمثل له أهمية بقدر ما تبدو له مستوحاة من "جواكيم [7]الأسطورى . كان يشبه نادلا فى الحقيقة ، ولكن .. من بوسعه أن يظن كلوديو كوتيس نادلا ؟ حتى الأعمى ؟

كان الجو دافئا ومع هذا آثر أن يرتدى معطفا خفيفا فوق سترته تحاشيا لنظرات العابرين الفضولية ، ثم تناول نظارة الأوبرا وغادر البيت يغمره شعور يقترب إلى السعادة .

كان مساء جميلا من أمسيات الصيف المبكرة فيما تتشح ميلانو – حتى ميلانو – بسمت المدن الرومانسية ؛ الشوارع هادئة شبه خالية ورائحة زهر الليمون تتصاعد إلى أنفاسه من الحدائق المجاورة وقمر هلالى الشكل يتلألأ على صفحة السماء . بلغ كوتيس طريق الكونسر فتوار وهو يفكر فى المساء الألق الذى ينتظره ، فى الأصدقاء الذين سيلتقيهم والجدالات الودية والنساء الجميلات

وكئوس الشامبانيا التي يقدمها "الاستقبال" بعد العرض في بهو الأوبرا . وكان قد اضطر إلى أن يمشي مسافة أطول قليلا حول المكان كي يتجنب النظر إلى تلك القنوات الكريهة المغطاة بالعشب

عند هذا الحد امتلأت عيناه بمشهد غريب . على الرصيف كان يقف شاب ذو شعر طويل أجعد يغني أغنية نابولية [8] ولا يكاد يبتعد الميكرفون الذى يمسكه بكلتي كفيه مقدار بوصة أو بوصتين عن فمه وكان يتصل بسلك إلى حقيبة مفتوحة مركونة إلى الأرض تحتوى على مركم كهربائي ومكبر صوت وسماعة ضخمة اندفع منها الصوت جهيرا مثل سباب فادح انهمرت أصداؤه بين مجازات المنازل المجاورة . أما غناؤه فكان أشبه بحالة متردية من الهياج ورغم أن كلمات الأغنية هي كلمات أغنية عاطفية معروفة إلا أنها بحنجرة هذا الشاب باتت أشبه بمفردات إرهابية . وكان سبعة أو ثمانية أولاد صغار يتحلقون حوله ويبدون جميعا كما لو أنهم مدمنون . ذلك كل شيء .

على جانبي الطريق أغلقت النوافذ وأضلفة الشبابيك .
لا أحد يريد أن يسمع . أكل هذه الشقق خالية
أم ترى سكانها اختبأوا خلف أبوابها المغلقة مدعين
أنهم ليسو هناك خوفا من شيء ؟. وبينما كان كوتيس
يقترب ، لم يتحرك المغني قيد أنملة بل راح يجأر
بصوت أعلى اهتزت على أثره السماعة . إذن هي
دعوة مباشرة للمايسترو كي يتفضل بوضع بعض النقود
في الطبق الموضوع فوق الحقيبة! لا يعرف لماذا
ألم به الاضطراب فأسرع الخطى وواصل سيره فوق
الطوار دون أن ينظر وراءه ،لكنه على بعد ياردات قليلة
كان لا يزال يحس تلك العيون العدوانيه تحدق فيه
فتلهب ظهره . "اللعنة" قال لنفسه: كيف أخرجه هذا
الاجتراء الوقح عن شعوره ؟ وقبيل بلوغه سان بابيلا ؛
عاوده الكدر مرة أخرى إثر لقاء عابر مع شاب متفوق
يدعى " بومباسي " ؛ واحد من تلاميذه القدامى
في الكونسرفتوار وقد صار الآن ناقدا موسيقيا

- أوه ، مــازلت علــى الــتزامك بســـكالا ياســيدى المايسترو!

قال الشاب وعيناه مثبتتان على ربطــة العنــق البيضـاء تحت صدرية كوتيس

- أيها الشاب الوقح ، أتراك تلمح بأننى وصلـت إلى السن الـ.. قالها فى سذاجة فيمـا أمسـك فجـأة بحثـا عـن وصف ملائم .

- أوه عفـوا يـا سـيدى المايسـترو . أنـت تعلـم جيدا أن سكالا يتأثر كثيرا بدونك . ولكن أيـن أردوينـو ؟ كيف لم يأتى معك ؟

- لقد ذهب يتابع البروفة النهائية لعرضه الخاص. كان مرتبطا بموعد هناك .

- آه ، حسن .. أفهم ذلك .

قالها بومباسي بابتسامة خبيثة تنم عن فهم ما.

ثم أضاف :

- كان سيرضيه أكثر لو أنه مكث بالبيت هذا المساء!

- لماذا ؟

سأله كوتيس وقد انتبهت حواسه إلى لهجة التوكيد فى صوت الشاب .

- كلا .. إن له أصدقاء كثيرين فى كل مكان. و .."أومأ الشاب برأسه تحية لأحد العابرين" ..لو أنى مكانه، لفعلت هذا .. معذرة يا مايسترو ، لقد وصل الترام الخاص بى – أتمنى لك وقتا ممتعا !

وكأنه ترك المايسترو العجوز معلقا فى الهواء يتخبطه الشتات .

حدق فى وجوه العابرين حوله ، فلم يلمح شيئا غريبا ، سوى أن الناس ، ربما، كانوا أقل عددا من المعتاد، أقل قليلا ، وربما غلبت على وجوههم مسحة من الشرود وشئ من القلق . ورغم أنه لم يكن قد تمكن بعد من فض شفرة كلام بومباسى اللغز ، قفز إلى وعيه فجأة ،

بطريقة عشوائية تفتقد إلى التواصل ، بعض من أنصاف عبارات ابنه الغامضة ، الرفاق الجدد الذين ظهروا فى حياته مؤخرا ، الالتزامات المسائية التى لم يكن يفصح عنها على الإطلاق ، وتملصه من استفسارات كوتيس بتفسيرات مبهمة ، ثقيلة . أيكون أردوينو متورطا فى شيء ما ؟ ما الشئ الغريب ، الخاص ، حول هذه الليلة بالذات دون غيرها ؟ ومن هؤلاء " الأصدقاء الكثيرون " الذين يلتفون حوله في كل مكان ؟!

وبينما كان يقلب هذه الأسئلة في رأسه ، وجد نفسه يتقدم نحو ساحة سكالا الخارجية ، وتدريجيا كان توتره يتلاشى وهو يتابع مدخل الأوبرا وقد ازدحم بالحركة المطمئنة . وما أن وقعت عليه عيون المعجبين حتى راحت النساء تتدفق نحوه كزخات مطر ، فى ثياب مزيلة وبراقع أنيقة وبيشات . وعبر نوافذ السيارات الفاخرة كان يمكن للرائى أن يلمح وميض الحلى اللألاءة ، مقدمات الصدور البيضاء والأكتاف العارية ،وبينما كانت تباشير ليلة

مفعمة بالقلق ، تراجيدية إلى حد ما ، على وشك أن تعلن عن حضورها فوق أفق ميلانو ، كان مسرح سكالا ، على طريقته غير المبالية المعتادة ، يعرض واحدة من روائع الأيام الخوالى . لم يحدث من قبل أن اجتمع مثل هذا التآلق الهارمونى ، من الثراء الروحى والمادى فى آن . وربما كان الاضطراب ذاته، الذى بدأ ينشر جناحيه فوق سماء المدينة ، هو عين الدافع وراء اعتمال هذا الشعور الفائر بالخفة والحبور . يبدو الأمر ، للرائى العارف ، كما لو أن عالما استثنائيا ، مميزا ، راح يلتجئ إلى قلعته المحببة الآمنة – كحال النابوليين القدماء عندما هرعوا إلى القصر الملكى هربا من هجوم " آتيلا "[9] الغاشم – لكى ينعموا بليلة أخيرة من ليلات المجد السامية غير أن قليلين فى الحقيقة هم من كانوا يعرفون حقيقة الوضع ؛ فنعومة المساء أقنعت الكثيرين بأن حقبة سوداء قد انتهت بحلول الشتاء الأخير ، وأن ثمة صيفا مدهشا ، هادئا ، هو على وشك البدء !

6

رغم كل هذه الأضواء متأججة البريق ، لم ينتبه كوتيس إلى وجوده قبالة المقاعد الأمامية فى غمرة تخبطه بين نهر الناس حواليه . كان الوقت يشير إلى التاسعة إلا عشر دقائق ، لما امتلأت القاعة عن آخرها . وراح كوتيس يرسل النظر حواليه بانتشاء لا يخفى ، كما ولد صغير لم تستطع كل هذه الأعوام الخالية الطوال ، أن تنال من توهج هذا الشعور الذى يتدفق إلى روحه كلما جلس بين أضلاع هذه القاعة ؛ شعور صاف رائق كما كان دوما . يعرف أن آخرين كثيرين – ممن يرد تحياتهم الآن بإيماءة قصيرة من رأسه – يحسون الشعور ذاته ، ذلك الذى يخلق بينهم وصالا خاصا ، نوعا من الأخوة السرية قد يبدو للغريب أمرا يدعو إلى التهكم أو الرثاء . هل يتغيب أحد ؟ تساءل وقد راح يفحص الحضور.

بنظرة متمرسة ، منصة فأخرى . كل شئ علـى حالـه . إلى يساره ، جلس السيد " فيرو " طبيب الأطفال ، الـذى يمكنه أن يترك الآلاف من مرضاه تصرعهم الذبحة دون أن يتغيب عن عـرض أوبـرالى ." وقـد أوعـز هـذا إلى كوتيـس بتلاعب لفظى مسل عن هيرودس وأطفال الجليل ، قرر أن يلجأ إليه لاحقا" وإلى يمينه كان الزوجان اللـذان أسماهما مرة " الأقارب الفقراء " ، عجوز وزوجتـه يظـهران دومـا فى ملابس سهرة غير أنيقة ، ولم يفتهما عـرض واحـد ، يصفقان لكل شىء بالحماس ذاتـه ولا يتحدثـان فـى شـىء واحـد ، حتـى لأحدهمـا الآخـر . ولهـذا ، كـان الجميـع يعتبرونهما مـن طائفـة "المصفقـين بـالأجر" هـؤلاء الذيـن يحصلون على مقاعد متمـيزة ، أرسـتقراطية ، مـن مقدمـة القاعة كى يكـون فـى وسـعهم أن يقـودوا حركـة التصفيـق خلفهما ، جلس البروفسير " سيشياسى " رجـل الاقتصـاد البارز ، المعروف بمصاحبتـه "لتوسـكانينى " فـى جميع رحلاته السياحية طيلة سنوات، وقيل أنه لما كـان معسـرا

فى تلك الأيام ، فقد كان يتحرك هنا وهناك على دراجة رخيصة ، وينام فى الحدائق العامة، ويأكل السندوتشات من مخلفات جراية الجنود . وكان أقاربه وأصدقاؤه يعتبرونه مجنونا ، وإن كانوا لم يفقدوا ولائهم له رغم ذلك . ثم كان هناك " بيكتشيان " أيضا ، مهندس الهدروليكا الشهير ، الذى كان على الأرجح "بليونيرا" وإن كان عاشقا متواضعا للموسيقى . وقبل شهر ، انتخب رئيسا شرفيا لمجمع الكوارتيتو[10] الشهير، وهو شرف طالما تاق إليه كما العشاق عشرات السنين ، مارس خلالهما ما لا يمكن وصفه من الحيل الدبلوماسية بغية الحصول عليه . غروره الأخير صيره شخصا متغطرسا على نحو لا يحتمل ، فى بيته وعمله .لقد تسنى له الجلوس فى وضعة المحكم على أعمال "بورسيل" و "دى يندى" هو الذى لم يكن باستطاعته ، فيما مضى عنونة شعبة الدبليس الأخيرة[11] بين الحضور أيضا ، وبصحبة زوجها ضئيل الحجم ، تجلس الحسناء "مادى كا نستريني"

بائعة المتجر سابقا ، والحريصة من قديم على حضور سلسلة من الجلسات المسائية مع أستاذ فى تاريخ الموسيقى كلما كانت هناك أوبرا شهيرة على وشك العرض ، كى لا يظهر جهلها أمام حضور المثقفين - وقبل مساء كهذا ، لم يكن ليتسنى لها أن تتيه زهوا بنهديها المشهورين المتألقين على نحو الاكتمال . وفى وقفتها بين الحضور ، أو جلستها ، كانا يطلان " مثل منارة متلألئة فوق رأس الرجاء الصالح"،على حد وصف أحد الحضور وها هى الأميرة " وورث مونتاج " بأنفها الأشبه بمنقار طائر ، والتى حضرت من مصر مع بناتها الأربعة خصيصا لحضور العرض وفى مقصورة سفلية كان يمكن للرائى أن يلمح لمعة تلك العينين الفاجرتين للدوق " توسيه " الملتحى ؛ حيث يمكنك أن تكون على يقين من حضوره المؤكد جميع العروض التى تتضمن فى ثناياها " راقصات باليه " حتى صار معروفا عنه ، فى مثل هذه المناسبات ، تعبيره عن إعجابه بعبارة لا تتغير

"أوه ، يالـه مـن قـوام ! يالهـا مـن سـيقان" ! ،، وفى مقصورة أمامية ، كانت تجلس القبيلة الكاملة للعائلة الميلانية الكبيرة؛ عائلة السيد " سالسيتى " التى تتباهى بين الحضور بأن افتتاحا واحدا من عروض سكالا لم يفتها منذ العام 1837. فى الصف الرابع ، فوق قنة خشبة المسرح تقريبا ، تجمعت ماركيزات ماريزونا ؛ الأم والعمة و الابنه غير المتزوجة . كن مشغولات بتبادل النظرات الجانبية القاسية نحو المقصورة الفخمة"رقم 14" بالصف الثانى ؛ والتى كانت حيازتهن الإقطاعية القديمة قبل أن يجبرن على التنازل عنها هذا العام تحت ضغط الحاجة الاقتصادية . وبثمن التكلفة ، رحن يكيفن أنفسهن وفق حالات استماع اتفاقية . و كن يتكورن فى جلستهن منكمشات كما هداهد فى محاولة منهن للتخفى عن العيون . وفى مقصورة أخرى ، كان ينام أمير هندى سمين غير معروف الهوية ، يحرسه فى نومته ياوران خاص فى زيه العسكرى الكامل . وكان من الممكن ملاحظة

خصلة الريش التى تعلو عمته ، بارزة قرب قمة المقصورة، ثم كانت تعلو وتهبط وفق تنفسه المنتظم . وعلى مسافة قريبة ، وقفت امرأة أخاذة الجمال فى حوالى الثلاثين . كان من الواضح أنها تتعمد لفت الانتباه إلى وقفتها . وكان فستانها القرمزى المدهش مفتوحا من أمام حتى الخصر ، وثمة شريط أسود يلتف مثل أفعى ضامة حول ذراعيها العاريتين . قال بعضهم ممثلة من هوليوود غير أن آراءهم راحت تتمايز حول اسمها . إلى جوارها سكن طفل جميل بلا حركة . كان شاحبا على نحو مرعب حتى بدا وكأنه على وشك الموت بين لحظة وأخرى . وكانت الجماعات المتخاصمة من طبقة النبلاء وطبقة التجار الموسرين ؛ كلاهما قد تخلى عن التقليد المدهش فى ترك المقصورات الضخمة ؛التى هى بمستوى خشبة المسرح، فباتت شبه خالية . وفى قمصان لامعة يتأجج نسيجها تحت سترات خطافية طويلة ، من أشهر بيوت الأزياء العالمية ، تجمع أبناء لومباردى الراغدين فى

مجموعات مسفوعة مندمجة في بعضها البعض . ثمة دليل آخر على نجاح تلك الليلة غير الاعتيادى يتمثل في هذا الكم الاستثنائي من الحسناوات في ثيابهن الجريئة العارية . وخلال إحدى فترات الراحة ، سيشغل كوتيس نفسه بلعبة ، طالما استمتع بها في شبابه : أن يراقب عمق هذه المناظر من أعلى . اختيار مقصورة الصف الرابع ، كموقع يمنحه أفضلية وتمايزا ، حيث يستطيع أن يلمح لمعة الماس على صدور " فلافيا سول " ؛ المرنة الجميلة [12] وإحدى صديقاته القدامى . ومثل ندبة سوداء في قلب باقة من الزهور حية ، تبدت مقصورة ما على النقيض من هذه الأبهة البهيجة . كانت المقصورة بالصف الثالث ، يشغلها رجال ثلاثة ، تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين . جلس اثنان منهم إلى جانبين بينما وقف الثالث في الوسط . وكان ثلاثتهم يرتدى سترة مزدوجة الصدر وربطة عنق سوداء . وجوههم نحيفة معتمة ، وصامتون تماما على نحو غير مفهوم ، يبدون كما الغرباء

تجاه كل ما يحدث حولهم . وكانت عيونهم . شاخصة في ستار المسرح كما لو أنها الشئ الوحيد الجدير باهتمامهم . بدا واضحا أنهم ليسو من بين جمهور الأوبرا الدائمين . بل أغلب الظن مثل قضاة يجلسون إلى كرسي القضاء، إلى اليسار ، ينتظرون تنفيذ حكم بالإعدام . والآن وقد صار الحكم ، فإنهم يفضلون ألا ينظروا نحو ضحاياهم ، ليس بدافع من الشفقة، وإنما لأنها ما قد يحول دون تنفيذ الحكم .

تطلع نحوهم الكثيرون بشيء من عدم الارتياح . "من هؤلاء ؟ ، كيف يتجاسرون على تعكير صفو المكان بطلعتهم تلك الجنائزية الكئيبة ؟ أفي ذلك نوع من التحدى ؟ وفيم التحدى إذن ؟" ألم الاضطراب بالمايسترو كذلك على أثر مرآهم . لقد أفعموا الجو بنذر من الشر كامنة . توجس خيفة ، ولم يكن يجرؤ على أثر ذلك أن يوجه نحوهم نظارة الأوبرا . وفي تلك اللحظة ، انطفأت الأضواء، وسقط شعاع وحيد أبيض من

الضوء ، المحاط بالإظلام من كل جانب ، وظهر " ماكس نييبرل " قائد الأوركسترا من مقدمة القاعة .

7

يقينا ، لن يتسنى لهؤلاء المروعين المتوترين من الجمهور أن يعثروا على ما يهدئ روعهم بين تسليات المساء ، فليس ثمة ما هو سلمي في موسيقى جروسجيموث أو في نوبات الجنون التى تنتاب زعيم حكومة الأربعة [13] أو فى التعليقات العنيفة القاطعة التى يطرحها الكورس والتأثير الهذيانى للتجهيزات المسرحية . هبط الكورس مثل سرب من الغربان الشرسة فوق صخرة مخروطية ، انهالت عباراتهم الجارحة على آذان الجماهير مثل سيل لا ينقطع حتى أنهم كانوا يهتزون فى أماكنهم ، وكانت كل عناصر الأداء الفردية وكذا الآلات ، العازفين ، الكورس ، فرقة الباليه ، قائد الأوركسترا

وحتى الجمهور ذاته جميعهم فى حالة من التوتر غير مسبوقة" كان الراقصون على الخشبة معظم الوقت يترجمون أبسط المقاطع بالحركات الصامته بينما كان المغنون قلما يتحركون " .

وبنهاية الفصل الأول انطلق تصفيق الجمهور مدويا ليس بدافع من الاستحسان بقدر ما كان حاجة بدنية مشتركة تخفف من حدة التوتر الجاثمة.ضجت القاعة الهائلة بالهتاف . وعندما تكرر هتاف الإعادة [14] ثلاثا ظهر جروسجيموث بهيكله الضخم بين مترجمى العرض[15] وراح يرد على التصفيق بابتسامة عاجلة فاترة من فرط الاعتياد ، ربما ، وهو يحنى رأسه على إيقاع الموسيقى . وطفر إلى وعى كوتيس مرة أخرى حضور الأشخاص الثلاثة ذوى الوجوه المقبضة ، فراح يختلس النظر نحوهم بطرف عينه وهو يصفق. كانوا هناك لا يزالون على صمتهم وسكونهم المخيف . لم يتحركوا قيد أنملة . دون تصفيق أو حديث ، بل ليس ثمة ما يدل على

كونهم أحياء . أيمكن أن يكونوا تماثيل المانيكان ؟ ثم إنهم ظلوا فى أماكنهم لم يبرحوها حتى بعد أن كان معظم الجمهور قد تدفق إلى البهو الخارجي . خلال فترة الاستراحة الأولى ذاعت الأقاويل حول احتمال وقوع عمل من أعمال الشغب بين الحضور على نحو ما كان يتناقلها أهل المدينة . ولكن هنا أيضا ، غلب التحفظ الغريزى على ألسنتهم مرة أخرى فتبادلوها فى البداية وكأنهم لا يعبأون بفحواها ولم يجرأوا كذلك على إثارة الجدالات الساخنة حول أوبرا جروسجيموث . وكان كوتيس يشترك فى هذه النقاشات الهادئة دون إبداء رأيه . فقط يبدى القليل من الملاحظات التهكمية المضحكة حول اللهجة الميلانية الدائرة حوله حتى دق جرس المسرح معلنا انتهاء الاستراحة . وبينما يهبط سلم متحف الأوبرا الداخلى إذ به يلتقى واحدا ممن يعرفهم دون أن يذكر أسمه . كان يبتسم ابتسامة خبيثة فى وجه كوتيس

- سعيد برؤيتك سيدى المايسترو ، أريد أن أتحدث إليك قليلا .

قالها فى هدوء بلهجة تميل إلى التكلف المفرط . هبطا معا . كان بعض الحاضرين لا يزال هناك ولكنهم سرعان ما راحوا يتفرقون .أين تراك اختفيت يا سيدى ؟ أتعرف، لوهلتى حسبتك اختفيت كما فعل "دون جيوفانى" !

وبدا واضحا أنه يعتبر ما قاله من قبيل المفارقات اللافتة إذ ظل يضحك فترة من الوقت . كان شاحب الوجه، تكتنف طلعته غرابة ظاهرة وتماثل لكوتيس كما لو كان مثقفا معدما من عائلة طيبة . يدل على ذلك سترته المسائية قديمة الطراز وقميصه الخفيف غير المهندم إلى حد ما وأظافره الرمادية الأطراف . كادا يبلغان نهاية السلم وكوتيس لم يزل على حريته . قال الرجل بحرص من يلتزم أقصى درجات الحيطة .

- حسن ، لابد أن تعدنى بأنك ستعتبر ما سأقوله لك بمثابة المعلومات السرية .. السرية .. أتسمعنى ؟ ولا

تفهمنى خطأ ، لا تظن أننى مندوب رسمى مثلا أو .. شخص من قبل الشرطة ؛ ذلك الاصطلاح الذى صار شائعا هذه الأيام .. أليس كذلك ؟

- طبعا طبعا !

غمغم كوتيس وهو يستشعر نذر القلق الذى كان انتابه على أثر لقاء بومباسى وإن كان أكثر حدة هذه المرة :

- ولكنى أؤكد لك أنى لا أفهم شيئا .

وعلت بين أروقة المكان دقة التنبيه الثانية . كانا الآن يقفان بالمر الأيسر الذى يمتد موازيا للمقاعد وكانا على وشك هبوط السلم الذى يؤدى إلى القاعة لما توقف الرجل فجأة :

- أنا مضطر لأن أتركك الآن ، فأنا لا أجلس فى هذه الناحية . حسن ، ربما كان كافيا أن أسر إليك بشيء واحد: ابنك .. الموسيقى أردوينو . أو ليس من صالحه أن يكون أكثر تعقلا مما هو عليه ؟ إنه .. لم يعد ولدا صغيرا، أم تراه كذلك يا مايسترو ؟ .. أوه يا

عزيزى،انطفأت الأنوار للأسف ولقد قلت لك ما يكفى أليس كذلك ؟

ثم ضحك وأحنى رأسه أمام كوتيس بخفة دون أن يصافحه واستدار وهو يكاد يجرى فوق السجادة الحمراء المفروشة بطول الممر الخالى .

كيفما اتفق ، وصل كوتيس إلى مقعده تحت ظلام القاعة، وجلس وهو يعتذر إلى جيرانه . جاشت نوبة من الاهتياج فى خاطره . ما الذى يفعله الطائش أردوينو ؟ بدا له كما لو أن ميلانو بأسرها تعرف ، إلا هو ، هو والده ، الوحيد الذى لا يستطيع حتى أن يختلق إجابة شافية . ثم من ذلك الشخص الغامض ؟ أين رآه قبل اليوم ؟ عبثا حاول استرجاع الظروف التى قد تدفع إلى معرفته ولكنه استبعد أن يكون التعارف قد تم خلال حفل موسيقى ما . فأين إذن؟ فى الخارج ربما ؟ فى فندق ما خلال عطلة صيف قديم ؟ لا ، لا يستطيع أن يتذكر على وجه الدقة !

8

فى تلك الأثناء كانت "مارتا فيت" تتقدم على خشبة المسرح فى حركات أفعوانية معقدة تشخص الخوف. او شيئا من هذا القبيل . كبربرية عاريه. وهى تدلف إلى قصر الحاكم ، ودون أن يدرى كوتيس حل وقت الاستراحة الثانية ولم تكد الأضواء تغمر جنبات القاعة حتى كان كوتيس يرمى ببصره في كل مكان بلهفة بينة بحثا عن هذا الرجل . يريد أن يستفسر عن أشياء كثيرة أخرى، يفض علامات استفهام كبيرة . ينوسل الرجل ان يلقى بشيء من الضوء حول الأمر كله فلابد أنه لم يكن يعدم الوسيلة التى تزود كوتيس بالأسباب إلا أنه لم يكن يريد أن يراه أحد انقضت الاستراحة وشخص كونيس طويلا ناحية مقصورة الرجال الثلاثة كلا . لم يعودوا ثلاثة ! إزدادوا واحدا !! كان يركن ظهره إلى مؤخرة

المقصورة بينما تعلو طلعته عين الكآبة التى يتسم بها أقرانه الثلاثة" ولم يعد كوتيس الآن يتردد فى النظر نحوهم عبر نظارة الأوبرا" كان الرجل يرتدى جاكيت سهرة من طراز قديم وقميصا ناعما رثا إلى حد ما ،ولكنه كان على خلاف الآخرين ، يضحك أحيانا ، ضحكة ماكرة من آن لآخر . دبت رجفة قاسية فى أوصال كوتيس . واستدار إلى البروفسير " فيرو " إلى جواره كما غريق يتشبث بأى شىء يقع بين كفيه :

- معذرة سيدى البروفسير

وأردف فى عجلة :

- أيمكنك أن تخبرنى من هؤلاء الجالسون هناك ، ذو الوجوه المقبضة .. هناك فى مقصورة الصف الثالث ، على يسار السيدة التى ترتدى الأرجوانى مباشرة

- أوه هؤلاء السحرة ؟

قال البروفسير وهو يضحك : إنهم يا سيدى " مركز القيادة العامة " G .H .Q بأكمله تقريبا !

- مركز القيادة العامة ؟ أى قيادة ؟

وابتسم فيرو :

- سيدى المايسترو ، إنك على كل الأحوال تعيش حياتك بين السحاب، يالك من سيد محظوظ بحق ! !

فعاد كوتيس يسأل بنفاد صبر :

- أى مركز قيادة هذا ؟

- يا إلهى مركز جماعة "موروزى" . يا مايسترو !

- جماعة موروزى ؟

استحال همس المايسترو العجوز صدى يصطدم بأشد هواجسه قسوة . موروزى ؟ اسم يرتبط بالإرهاب فيما يعلم. لم يكن يوما يقف إلى جانبهم ولا كان ضدهم ذات مرة ، بل لا يكاد يعرف عنهم شيئا . لم ينشغل بأمرهم طيلة حياته . كل ما يعرف أنهم عصابة خطيرة وكان هذا وحده يكفيه لكى يأمن جانبهم . وأروودينو البائس يتحداهم إذن؟ ينصب المسكين من نفسه عدوا لهم ؟ ليس هناك تفسير آخر لما يحدث حوله منذ فترة . ففى ذلك ما يبرر

انشغال ابنه بالمؤامرات السياسية بدلا من أن يضفي على موسيقاه شيئا من بساطة الحس العام . لا أحد يحلم بأب أكثر تسامحا وتفهما من كلوديو كوتيس بل إن أردوينو ، بحق جوبيتر العظيم [16] سيعلم بذلك غدا . يخاطر بحياته كاملة من أجل جنون شائن كهذا ؟ ! وأمسك كوتيس عن طرح المزيد من الأسئلة على محدثة البروفسير فيرو . أدرك انه أمر يتعلق بهم . لقد كان من الكرم على أية حال أن يكتفوا بوضع أردوينو تحت مراقبته بهذا التنبيه . اختلس النظر وراءه وحواليه . خامره الشعور بأن القاعة برمتها تنظر إليه بعين الاستخفاف . شخوص قبيحة وقحة ، أفراد الجماعة هؤلاء طغاة ، ولا سبيل إلى السيطرة عليهم ، ففيم إذن السيطرة عليهم، ففيم إذن استفزازهم يا أردوينو البائس؟

بالكاد أفاق على صوت البروفسير فيرو :

- سيدى المايسترو ماذا بك ؟ أولست على مايرام؟

فأجابه بسرعة فى محاولة لستر حالته :

- ماذا ؟ لماذا ؟

رأيت وجهك يشحب تدريجيا و .. لا بأس هذا ما يحدث غالبا فى هذا الطقس الحار ، معذرة سيدى .

- أوه ، كم أن هذا طيب منك يا سيد فيرو . حسن، لقد ألم بى إرهاق مفاجئ فعلا . تعرف أننى بالقطع أتقدم فى السن و .. تلك هى المشكلة .

ثم راح ينسحب فى هدوء متجها نحو باب الخروج .

وكأنه أفاق من غيبوبة كابوسية كان قد سقط فى هوتها قبل أن يرده عن ظلامها الموحش مشهد هذا الحضور الموسر الرهيف الصحيح رقيق الثياب والمفعم بالحياة بين حوائط الرخام وأعمدة الرواق الخارجى . بالضبط كما تمحو أشعة شمس الصباح كل أثر للكوابيس التى ظلت تلتبس إنسانا ما طوال الليل . شعر أنه بحاجة إلى الاسترخاء ، فراح يقترب إلى مجموعة من النقاد استغرقهم النقاش حول العمل .

قال أحدهم :

- على كل الأحوال الكتابة الكورالية ممتازة بلا شك .

وقال آخر :

- إن منشدى الكورس هم للموسيقى كما الموهبة الفطرية لشيوخ الفنانين فى التصوير الزيتى ؛ من السهل أن ننفعل بها ولكننا لا نستطيع أبدا أن نفهم أنفسنا من خلالها .

- هذا صحيح .

قالها أحد المعروفين بفصاحته ثم أضاف :

- ولكن إلى أى شىء يقودنا هذا ؟ الموسيقى اليوم لم تعد تعنى بالتأثير . لم تعد ظاهرية أو محركة للعواطف ، لم تعد نغمية أو فطرية أو سهلة . إنها لا تنسجم مع دنيا المتاحف . وعموما فإن كل شىء على ما يرام حتى الآن . ولكن هل بإمكانكم أن تخبرونى ما الذى تبقى؟وفكر كوتيس فى موسيقى أردوينو !

9

كان نجاح الأوبرا مدهشا بحق ولو أنه من غير المؤكد أن ثمة أحدا من الحضور قد أعجب بالموسيقى إعجابا خالصا ، ولكن جميعهم إلى حد بعيد كان يريد أن يبدو كما لو أنه يفهمهما تمام الفهم ، أن يظهر فى سمت المثقف الطليعى . ثار من ثم نوع من التنافس الخفى الصامت وبلغ الاستهواء مداه فيهما يجتهد أحدهم فى اكتشاف جماليات الموسيقى الواردة ؛ أصالتها ومغزاها المضمر . ولكن متى كانت الأوبرتات الحديثة تنشد التسلية ؟ قد يزعم المرء ابتداء أن المحدثين من الرواد يكرهون تزويد العمل بأبعاد التسلية والإمتاع . إنه خطأ لا يجوز غفرانه أن تتوقع منهم ذلك إذ بإمكان الجمهور بحثا عن هذه التسلية أن يتوجه إلى المسرحيات الغنائية الراقصة أو إلى المعارض الموسيمية التى تقام على الحدود .

ورغم ذلك كانت هناك عناصر لافتة مثيرة للإدهاش ، مثل التوتر العصبى الذى كان ينتاب جروسجيموث وهو يقود الأوركسترا وكذا المغنين وهم يؤدون بسرعة كاملة وبأعلى طبقة فى حناجرهم ، وقبل كل شىء الطرق الدءوب اللحوح الذى كان ينهمر من ناحية الكورس ، ولو أنه كان يتم بطريقة وحشية قاسية إلا أن الجمهور كان منفعلا مستفزا بلا ريب . بالتأكيد فإن التوتر المتصاعد الذى دفع الجمهور إلى التصفيق وإطلاق صيحات الاستحسان من لحظة الانتهاء الأولى إنما هو مكافأة مرضية لموسيقار ما .

غير أن الجمهور كان قد وصل إلى أقصى درجات حماسه من خلال التأثير التراكمى للمشهد الأخير الطويل من الموشحة والذى بلغ ذروته باندفاع جنود هيرودس إلى " بيت لحم " بحثا عن الأطفال بينما راحت الأمهات تدافع بقوة عن أطفالهن حتى لقين حتفهن على عتبات القصر . وفى تلك اللحظه أظلمت السماء وعلا صوت البوق من خلفية المسرح معلنا أن الملك فى أمان .

لابد من إضافة أن مصمم الملابس والديكور ومن قبله مصمم الرقصات وملحن موسيقاها العبقرى " جوهان مونكلار " الذى كان وراء نجاح العرض بوجه عام ؛ قد استطاعو جميعا أن يتجنبوا أى تأويل ملتبس ، ذلك أن الفضائح التى كانت وقعت فى باريس قبل وقت قريب جعلتهم يحتاطون للأمر بدرجة من التيقظ ، ومن ثم لم يعد "هيرودس" نسخة كربونية من " هتلر" وإنما أضيفت عليه بعض السمات النوردية[17] فصار أقرب شبها إلى "سيجفريد[18]"منه إلى حاكم "الجليل ". أما الجنود وشكل الخوذات على وجه الخصوص فلم يكن يسمح تصميمهم بتسرب أى قدر من الشك . "انتظروا لحظة " قال كوتيس "ليس هذا قصر هيرودس ، كان يجب أن يكتبوا على الباب عبارة **oper kommandantur !** وتركت الأدوات المسرحية انطباعا طبيعيا فى نفوس الجمهور . أما الرقصة الدرامية الأخيرة بين السفاحين والأمهات فقد كانت شديدة القوة والتأثير كما وصفوها ،

مع صيحات الكورس البرية من فوق الصخرة المخروطية التى يقفون فوقها . ورغم أن نوعية الماكياج المستخدم لم يكن يضيف جديدا إلى مستوى التكنيك إلا أنه كان موحيا وفعالا . وكان الجنود يرتدون زيا كاملا أسود ، حتى وجوهم كانت سوداء ، أما الأمهات فكن بيضاوات اللون وكان الأطفال قد تم تمثيلهم بدمى حمراء مصقولة ، منحوتة من خشب" صممها " بالارين" طبقا للبرنامج المعروض" وكان توهجهم اللامع موحيا شديد التأثير ، كما صارت التنويعات الضوئية بين الأبيض والأسود ، فى مواجهة خلفية تميل إلى الأرجوانية ، أكثر حيوية. وفى أوقات كثيرة انفعل معها الجمهور بالهتاف والتصفيق" انظروا كيف يبتسم جروسجيموث صاحت سيدة كانت تجلس خلف كوتيس ، بينما ينحنى جروسجيموث تحية للجمهور (صحيح) أجاب كوتيس " إنه أصلع حتى يكاد رأسه يشبه مرآة " كان كوتيس على حق فقد كان الموسيقار الشهير أصلع تماما حتى بدا رأسه

للرائى مثل بيضة "أم تراه كان حليقا فحسب"؟ !!
وفى ذلك الوقت كانت مقصورة " مورزى " بالصف الثالث قد خلت تماما !

10

وفى طقس يعبق بالرضا العام ، كان أهل الصفوة قد تسللوا إلى بهو الاستقبال بينما عاد معظم الجمهور إلى بيوتهم فور انتهاء الأوبرا . اصطفت الفازات الأنيقة المحملة بالأرطنسيات[19] القرمزية والبيضاء على جنبات المكان متألق الضوء. ولم تكن هذه الفازات موجودة من قبل هناك أثناء فترتى الاستراحة .

وعلى أحد جانبى باب البهو المزدوج وقف الموسيقار " روسى دانى " المدير الفنى فى استقبال الضيوف وعلى الجانب الاخر د . هيرش مدير المسرح فى صحبة زوجته قبيحة الشكل ، خفيفة الروح مع هذا ، وعلى مقربة منهم

كانت تقف السيدة " بورتالاكوا " العجوز المعروفة باسم " دونا كلارا " تتحدث إلى رجل الدولة المحنك السيد " كورالو " العجوز . ويبدو أنها كانت تتعمد الوقوف إلى الخلف قليلا ، ذلك أنها تؤثر أن يكون حضورها محسوسا وإن كانت لا ترغب أن تبدو لعين الحضور وكأنها تدعى مكانة رسمية ليست لها بطبيعة الحال . كانت تعمل سكرتيرة لا غنى عنها ومديرة لأعمال المايسترو " تارا " منذ سنوات بعيدة إبان كان مديرا فنيا للمسرح . وقد ترملت " دونا كلارا " قرابة الثلاثين عاما ، استطاعت خلالها أن تمتلك بيتا رائعا وتتصل بأعرق عائلات ميلانو وأن تجعل من ذاتها شخصية مرموقة بين مجتمع النخبة حتى بعد وفاة تارا . وكان من الطبيعى أن يصير لها أعداء ممن يظنونها مولعة بالمكائد والمؤامرات . إلا أنهم مع ذلك يعاملونها باحترام إذا ما عن لهم مقابلتها . كانت مهابة إذن بلا مبرر واضح تقريبا ، وقد أدرك مدير المسرح والمديرون الفنيون من قديم أهمية أن يستقطبوها إلى

جانبهم ، فكانوا يطلبون نصيحتها ، فيما يتعلق بتنظيم البرنامج السنوى ، ويتلمسون مشورتها عند اختيار الممثلين ويستحثونها للتدخل الفورى حالما كانت تثور مشكلة ما مع السلطات أو الفنانين؛ تلك الوساطة التى تنجزها لا تزال بمهارة مدهشة غامضة التفاصيل . وامتثالا لتقاليد المظاهر الآسرة . اختيرت دونا كلارا مستشارا لمجلس إدارة دار الأوبرا لعدد من السنوات غير محدد ، كانت وظيفة العمر بالنسبة لها ، ولم يكن فى مقدور أحد أن يحلم بخلعها غير واحد ، واحد فحسب ، حاول ذلك ؛ هو " كومنداتور مانكوزو " تحديدا المدير الأسبق والذى ملكه الفاشيون زمام الأمور بالمسرح . كان من نوع الرجال المجاملين ، غير أنه لم يكن أهلا بالوظيفة . وبعد ثلاثة أشهر، ثلاثة أشهر فحسب ، اختفى غير مأسوف عليه ! !

مع هذا كانت دونا كلارا سيدة نحيفة ضئيلة الحجم ، تتريا بإهمال واضح ، فلا يكاد يلفت مظهرها نظر أحد .

وكان كسر غائر فى عظام فخذها - على أثر سقطة عنيفة من فوق حصان إبان شبابها - قد خلف فى مشيتها عرجا خفيفا ظاهرا (ومن هنا جاءت كنيتها : "الشيطانة العرجاء " على لسان خصومها).

ولكنك حالما تتحدث إليها يدهشك على الفور أن ترى كيف أن ذكاء حادا يشع من عينيها ويغمر محياها . لقد وقع فى حبها رجال كثيرون رغم غرابة هذا . وهى،وإن كانت تخطت الستين الآن ، إلا أنها تبدو أكثر قوة مما كانت عليه قبلا ، بتلك المكانة التى ينعم بها وقار السن على صاحبه . كان المديرون والمنظمون فى الحقيقة أكثر من موظفين لديها ، إلا أنها كانت تعرف جيدا كيف تسوسهم بتلك المهارة الغامضة التى لا يدرك كنهها أحد ، والتى تجعلهم قانعين بأن سلطاتهم فى دار الأوبرا ليست بحال مطلقة !

11

تدفقوا الآن إلى غرفة الاستقبال ؛ الوجهاء وشخصيات المجتمع البارزون ، أفواج من أصحاب الأصول النبيلة وأحدث الابتكارات الباريسية والحلى الثمينة ، تدفقت أفواه وأكتاف ونهود عارية ، عرضة لتحديق أكثر الناس عفة . غير أن شيئا اكتنف حضورهم ، دخل معهم ، شيء كان حتى هذه اللحظة يخفق فحسب بلا تواصل فوق رءوس الزحام ، دون إلحاح ظاهر فيتركهم سالمين من الأذى : إنه الخوف !! نعم . فقد انتهت الشائعات التى طالما تناثرت باللقاء وراحت تكتسب مكانة بارزة من الحقيقة ، تتأكد تدريجيا على نحو جماعى . كان ثمة همس يسرى هنا وهناك ، ابتسامة جافة وصيحات تعجب واستنكار تصدر عن شفاه من راحوا يتعاملون مع الأمر على أنه مزحة . وكان جروسجيموث قد ظهر بين

الحضور يتبعه طاقم العمل وتمت طقوس التعريف فى جهد واضح باللغة الفرنسية وطبقا للرسميات التقليدية. اقتيد الموسيقار إلى البوفيه ترافقه دونا كلارا وكالعادة تتعرض المعرفة باللغات الأجنبية إلى اختبار قاس فى مثل هذه المناسبات

- إنها لمأثرة بحق . عمل رائع فى الحقيقة

قالها د. هيرش بالفرنسية وراح يكررها مرات حتى بدا واضحا أنه لا يستطيع أن يقول أكثر منها. كان هيرش من نابولى رغم طبيعة اسمه الذى قد يوحى بجنسية أخرى. ولم يكن حال جروسجيموث بأفضل منه ، فرغم إقامته الطويلة فى إحدى المقاطعات الفرنسية ، لم تكن فرنسيته مريحة للأذن . وكانت طريقة نطقه توحى للسامع بأن المفردات تخرج من حلقه مما جعل الفهم أمرا غير ميسور بحال وكان الحوار ينقطع بين آن وآخر ويحتاج بعض الوقت كى يستمر مرة أخرى ولكن ثمة عزاء أمكن تلمسه . خروجا من المأزق الحرج ، باكتشاف

أن "مارتافيت "راقصة " بريمن " تتحدث الإيطالية بطلاقة مدهشة بل وتجيد لكنة أهل بولونيا الغريبة .

وبينما كان النادلون يتحركون فى خفة بين الحضور يحملون صوانى الإسبومونية واللحوم المحلاة بدأ الضيوف يتشكلون فى مجموعات صغيرة مستقلة . وكان جروسجيموث يتحدث إلى دونا كلارا بصوت خفيض عن أشياء تبدو مهمة . كان يقول لها :

- أظن أنى لمحت " ليونتر " بين الجمهور . أأنت على ثقة من عدم حضوره ؟ كان ليونتر ناقدا بصحيفة " لومند " وكان قد وجه نقدا عنيفا لجروسجيموث على صفحات " بروميير " الفرنسية ، وحضوره اليوم إنما يعنى انتصارا هائلا لجروسجيموث ،ولكنه لم يكن هناك فى الحقيقة .

- ومتى يكون متاحا أن نقرأ كوربيرى ديلاسيرا ؟

سأل الموسيقار بثقة رجال عظام وأردف :

- إنها الجريدة الأكثر سلطوية فى إيطاليا . أليس كذلك يا مدام ؟

أجابت دونا كلارا وهى تبتسم :

- يقولون ذلك على كل حال ولكن حتى صبيحة الغد فـ..

- إنهم يطبعونها ليلاً . أليس كذلك ؟

- نعم كى تصدر فى الصباح ولكننى أؤكد لك أنها سوف تُثنى على العرض .يقولون لى إن الناقد مايسترو " فراتى " كان مهزوزاً بعض الشيء .

- أوه ، هذه مغالاة فيما أحسب .

ثم حاول أن يستحضر مجاملة لطيفة :

- سيدتى ، هذا المساء الحافل بعبق المجد والسعادة إنما ينتمى إلى عالم الأحلام .. أوه تذكرت ، ثمة جريدة أخرى .. " الميسارو " إن لم أكن مخطئاً .

- الميسارو ؟

وتدخل هيرش :

- لعلك تقصد " الميساجيرو .

- نعم نعم .. الميساجيرو .

- ولكنها جريدة رومانية يا سيدى .

- نعم ولكنها أرسلت أحد نقادها رغم ذلك .

صاح بهذه العبارة شخص لا يعرفه أحد وأتبعها بعبارة فرنسية توحى لهجتها بأهمية مضمونها :

- إنه الآن فى مؤخرة القاعة يجرى اتصالاته لعمل تحقيقه الصحفى .

وكان جروسجيموث هو الشخص الوحيد الذى لم يتسن له إدراك ما بها من در !!

ومال ناحية السيدة دونا كلارا :

- أشكرك يا سيدتى . إنى أتطلع لرؤية الميساجيرو غدا

وأردف موضحا :

_ ترين أنها جريدة تصدر فى روما على أى حال !

وهنا تدخل المدير الفنى لكى يقدم للمايسترو باسم

مجلس إدارة مسرح سكالا ميدالية ذهبية ، فـي علبـة مـن الحرير، زرقاء، منقـوش فوقـها التـاريخ واسـم الأوبـرا . وعلى الفور تدفقت الاستجابات المتناقضة مـن فـم " ضيـف الشرف " وتراوحـت بـين الرفـض وعبـارات الشـكر . وللحظـات بـدا الموسيقار الكبير فـي قمـة انفعالـه ، ثـم تناولت دونا كلارا العلبة وراحت تفتحها بإعجاب شـديد وتبتسم في انتشاء واضح ، وهمست إلى المايسترو:

- رائعـة ! ولكـن هـذا الطـلاء فضـي إن لم أكـن مخطئة!

12

تحول انتباه الضيوف إلى شـيء آخـر ؛ انشـغلوا أكـثر "بمذبحـة" أخرى لاعلاقة لها "بالأبرياء" فالحدسُ بعمـل هجومي على يد جماعة " مورزي " أمر لم يعد سراً لبعض ذوي الإطلاع على الأحداث عن كثب . وحتى تلك اللحظة،

كانت الشائعات قد تنقلت بكفاءة تامة كى تطول أناساً قابعين فى أبراجهم ، رءوسهم فى السحاب مثل المايسترو كوتيس . غير أن الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن القليل منهم فحسب هم الذين كانوا يؤمنون بصحتها .

" لقد عُبِّئَتْ قوات البوليس مرة أخرى هذا الشهر . هناك ما يجاوز عشرين ألفاً من رجال الشرطة فى ميلانو وحدها . فضلاً عن قوات المهمات القتالية وبعض فصائل الجيش ".

وكانوا يقولون :

" الجيش ! من يعلم بما ستفعله قوات الجيش فى اللحظة الحاسمة . هل سيطلقون النار لو أنهم تلقوا أمراً بذلك ؟ "

" لقد تحدّثَ إلى الجنرال " دى ماتييس " قبل أيام ، وقال لى أنه مطمئن إلى حالة الجنود المعنوية، أما الأسلحة، فهى بالطبع غير ملائمة "

" غير ملائمة ؟ لأى شىء ؟ "

" لعمليات الأمن القومى العام . إنهم يحتاجون المزيد من القنابل المسيلة للدموع .. وأضاف لى " دى ماتييس " أنه ليس هناك من سلاح أفضل من السوارى بالنسبة لهذا النوع من الاضطرابات ولكن - ما فائدة السوارى هذه الأيام؟ "

" نعم ، أنما مؤذية للغاية ، ثم إننا لن نجنى من ورائها سوى الطنين العالى "

" اسمع يا عزيزى ، ألست ترى أنه من الأفضل أن نعود إلى منازلنا ؟ "

" منازلنا ؟ فيمَ العودة يا سيدى ؟ تظن أنك ستكون أكثر أماناً فى المنزل ؟ "

" بحق السماء ياسيدى ، لا تدعنا نغالى فى الأمر . لننظر ونرَ أولاً ماذا سيحدث . ثم أن هذه الهجمة ، إن وقعت ، فلن تقع اليوم ، ربما غداً أو بعد غد . فالثورات لا تشب بالليل والبيوت مغلقة و الشوارع مهجورة ، لماذا .. إنها بمثابة مكافأة للبوليس ".

" ثورة ! يا ألطاف الله ! هل تسمع ذلك يا " بيب " هذا السيد يقول إن هناك ثورة . قل لى ماذا ينبغى علينا أن نفعل ! أفق يا بيب ، لا تقف صامتاً هكذا مثل مومياء ! "

" هل تراك لاحظت أن مقصورة " مورزى " خلت قبيل انتهاء الفصل الثالث ؟ "

" نعم أيها الرجل العجوز ، بل لم يعد هناك من أحد فى مقصورة رئيس الأمن العام ، ولا مقصورة رئيس البلدية ، ثم خلت مقصورة الجيش كذلك . حتى نساؤهم اختفين أيضاً . إنه " خروج عام "..يبدو لى وكأنه يتم وفقاً لترتيب أو أوامرما".

" أوه ، الحكومة متيقظة تماماً وعلى علم بما سيقع هناك جواسيسها ، بالتأكيد ، الذين يندسون فى كل مكان، حتى بين صفوف الجماعة نفسها ". على هذا النحو كانوا يتحدثون ، وهم فى قرار أنفسهم يتمنون لو أنهم آثروا العودة إلى بيوتهم . لكن أحداً لم يكن يجرؤ على مغادرة المكان . كانوا يخشون الشعور بالوحدة ،

يخشون الصمت وقلة المعلومات والأخبار فيما يتمدد أحدهم ، آخر الليل، وحيدا فى فراشة يدخن ، بينما يترقب صوت اندلاع الطلقة الأولى بين لحظة وأخرى . أما هنا ، وطالما أنه بين رهط كبير من الرسميين البارزين وشخوص المجتمع المعروفين ، وطالما أنه فى بيئة غير سياسية ، فلا خوف عليه ، يشعر أنه آمن فى محمية آمنة ، كما لو أن سكالا قد أصبح مبنى دبلوماسيا . فكيف ينهار بجرة قلم كل هذا العالم العريق البهيج ، هذا الصرح الراقى المتحضر ، المتماسك فى صلابة لا يزال، وبين أضلاعه هذا الكم من الرجالات المرموقة وتلك الكوكبة الألقة من أشهى نساء المجتمع المثقفات؟!

13

بعد قليل ، قدم " تيودور كليسى " وصفا شائقا لما يخشى الجميع حدوثه ، بتلك السخرية المعهودة عنه ،

يكللها حس لغوى سليم . قبل حوالى ثلاثين عاما ، لم يكن الأمر يخلو من مبرر واضح أن راح الناس يلقبونه بـ " أناتول فرانس " الإيطالي . فقد كان أيامها ينعم بصحة جيدة، ويتمتع بوجه وردى اللون ، ذبل الآن ، وشارب رمادى طويل يعزز الاعتقاد الشائع عن صورة المفكر. قال وهو يحاكي لهجة السلطة المتعالية ، ويمسك إبهامه الأيسر بأصابع كفه اليمنى كما لو أنه يدرس " الأعداد " لمجموعة من الأطفال :

- المرحلة الأولى : احتلال ما يسمى بالمراكز العصبية للمدينة . ودعونا نأمل أن لا يشغل هذا الإجراء مكان الصدارة .

يضحك وينظر إلى ساعة معصمه :

- المرحلة الثانية ، يا أصدقائى الأعزاء : التخلص من العناصر غير المرغوب فيها .

وشهقت " ماريو جابريللى " زوجة الممول :

- يا إلهى ، الأطفال !الأطفال وحدهم بالبيت!

ورد كليسى على الفور :

– كلا ليس الأطفال يا سيدتى ، فلا تخافى . إنهم يطاردون الوحوش الضارية وليس الأطفال . فقط الكبار ! والأكثر رقيا وتحضرا منهم على وجه الدقة !

وصاحت الحسناء " كيتى إنتروزى " بطريقتها الغبية المعتادة:

- أوليست المربية معهم على كل حال ؟

وقطع الحوار صوت بدا صافيا ونزقا فى آن :

- معذرة سيد كليسى ، ولكن هل تراك تحسب ما تقول قصصا مسلية ؟

كان صوت " ليزيلورى بينى " ؛ أكثر فتيات مجموعة ميلانو تميزا وجاذبية ؛ لجمال طلعتها وربما لإخلاصها اللامتناهى الذى تعززه رحابة روح ورفعة اجتماعية لا جدال فيها :

- سامحنى يا سيد كليسى ولكن هل كنت تجرؤ أن تتحدث بمثل هذه اللهجة لو لم تكن تشعر بالأمن؟ ماذا تعنين ؟

- كليسى ! لا تجبرنى على قول ما يعرفه الجميع!.. ولكن ، ربما كان من غير الصواب ، على كل الأحوال ، أن ألومك على عمل صداقات قوية حتى - كيف أقول ؟ ! - حتى بين صفوف المتمردين أنفسهم !! لقد كنت عاقلا ، عاقلا جدا، ولعلنا ندرك ذلك عما قليل . فأنت تعرف جيدا أنك فى عداد قائمة الاستثناء !

- استثناء أى استثناء ؟

ووجهه يزداد شحوبا ، قالت ليزيلورى :

- يا إلهى استثناء من قبل فرقة الإعدام ! وأشاحت بوجهها عنه بين ضحك الحاضرين الهادئ .

انفض الجمع من حول كليسى ووقف وحيدا ، بينما التف الآخرون حول ليزيلورى على قيد خطوات . وكما لو كان نوع من استراحة المحارب؛ آخر مأوى بائس يمكنها

أن تلجأ إليه ، جلست لـيزيلورى إلى الأرض وراحـت تلـم حولها ذيل فستانها البـاليني[20] النفيـس – الـذى يقـدر ثمنه دون مبالغة بمائة وخمسة وأربعين دولارا – من بين أعقاب السجائر المتناثرة وآثار الشامبانيا التى تلطـخ الأرضية . ثم شرعت تتجادل بقوة مع متهم وهمـى دفاعـا عن طبقتها ، ولما لم يكن أحد قبالتها ينافحها فقد حكمت بأن أحـدا لا يفهمـها . وفـى ثـورة غضـب طفولية رفعـت رأسها نحو جيرانها المتحلقين حولها :

- ألا يعرفون حجـم التضحيـات التـى قدمناهـا؟ ألا يدركون أننا لا نحتكم الآن على بنس واحـد فـى البنـك .. المجوهرات ؟ ها هى المجوهرات !

وبدأت تحل عن معصمـها إسـورة ذهبيـة ذات حجـر كريم ثقيل يزن حوالى ثمانية أونسات [21]

- العمل الممتاز ؟ كلا .. حتى لو أننـا منحنـاهم كـل ما نمتلك من حلى ، أترون ذلك يغير من الأمر شيئا ؟ كـلا .. إنها ليست النقطة الهامة .

واقترب صوتها من البكاء :

- الحقيقة أنهم يكرهـون وجوهنـا ، لا يستطيعون تحمل أن يكون بالعـالم أنـاس متحضـرون،لا يتحملـون أن يرونا نتنفس مثلما يتنفسون ! أليست هـذه هـى "العدالـة الجديدة "التـى يحاول هؤلاء الخنازير فرضها ؟

قال شاب :

- ليز يلورى ، كونى علـى حـذر . أنـت لا تعرفـين من عساه يسمع ما تقولين الآن !

- حظ ! ! أتظنهم لا يعرفون أنى وزوجى على رأس القائمة ؟ أو يجب علينا أن نظل حريصين بعد ذلـك ؟ لقـد كنا فى غاية الحرص وتلك هى النتيجة والآن ربما .." ثـم توقفت فجأة "حسنا ، من الأفضل أن ألتزم الهدوء !

14

بدا المايسترو كلوديو كوتيس وكأنه الوحيد الذى فقد صوابه للأبد . كانت تجتاحه طيوف لرعب كلما لاح لخاطره تحرك جماعة " مورزى " لقد كان يشبه أثناء ذلك، بطريقة من المضاهاة قديمة الطراز ، كشافا قديما راح يستمتع أياما معدودات بسفر هادئ إلى مقاطعة آمنة وخيم هناك بعد ما نجح فى الإبحار بمنأى عن وباء آكلى لحوم البشر ، ولما أوشك على نسيان كل شيء إذ به يرى بغتة من بين خصاص الغصون المتشابكة خلف خيمته ، مئات الرماح التى انتصبت فى وجهه ولمعة العيون الجائعة للأهالى الأصليين .

فى سويعات قليلة ، هبط العالم بثقله فوق رأسه : المكالمة الهاتفية ؛ أول تلميح إلى المصيبة ، حديث بومباسى اللغز ، تحذير الشخص المجهول له فترة

الاستراحة ، والآن .. الكارثة الوشيكة ! يالك من أبله يـا أردينو! !

لو صدقوا وحلـت الكارثـة لكنت أول مـن يطاح بـه!
والآن ، وقد فات أوان أن يفعل أى شيء ، حاول المايسـترو العجوز أن يهدئ من روعه . قال لنفسه : أو ليست بـادرة طيبة على كل حال أن يحذرونـى ؟ أو لا يعنـى هـذا أنـهم يشـكون فـى أردوينـو فحسـب ؟ ، " يالهـا مـن فكـرة " - أجـاب نفسـه _ " وكـأن هنـاك متسـعا لتلـك التميـيزات الهادئة وقت الفـتن الكـبرى ! ثـم مـا الـذى يمنـع هـؤلاء المتوحشين مـن تحذيـرى هذا المسـاء ، بتلـك الطريقـة الشيطانية الخالصة ، بينما لم يعد هناك وقت كـاف أمـام أردوينو لإنقاذ نفسه؟

وراح كوتيس ينتقل من مجموعة إلى أخرى فى قلق باد لا يخفى علـى أحـد ، تواقـا لأن يستمع إلى خـبر مطمئـن ولكـن . ليـس ثمـة أخبـار مطمئنـة . اندهـش أصدقـاؤه ،

والحالة هذه ، " فيما انفعاله ؟ " هم الذين تعـودوا أن يروه على كـل الأحـوال رصينـا ، مفعمـا بحضـور بديهتـه التهكمية المرحة .

لكنهم الآن على درجة من القلق لا تسمح لهم بالتفكير في غير أنفسهم ، أو في رجل طاعن لا يحفه أذى ولا غبار عليه !

جال كوتيس بلا هدف ، بحثـا عـن شـيء ، أى شـيء يبعث الطمأنينة إلى قلبه . وبلا وعي كان يجرع الكأس تلو الأخرى من الأسبومونية التى يقدمها النادلون بلا توقف ، بينما يتفاقم التيه داخله . وإذ يمضي بين الحضـور بـاغت خاطره مخرج بسيط . واندهش كيف لم يخطـر علـى بالـه قبلا . فلماذا لا يعود إلى البيت وينبـه أردينـو ،أو يخبئـه فـي مكـان آخـر ، لابـد أن أصدقـاء كثـيرين سيتحمســون لإيوائه . نظر إلى ساعته ،كانت تشـير إلى الواحـدة وعشـر دقائق ، فراح يتجه على الفـور ناحيـة السـلم وقصـد بـاب الخروج .

غير أن صوتا ما أستوقفه وهـو علـى قيـد خطـوات مـن الباب :

- مايسترو كوتيس !

كان صوت دونا كلارا ، التـى انفصلـت عـن المجموعـة الرسمية ووقفت فى صحبة شاب صغير قرب الباب :

- أيـن تـراك ذاهبـا فـى تلـك الساعة ؟ ومـا هـذه التعبيرات الغريبة التي تكسو وجهك ؟ هل تشكو شيئا ؟

قال كوتيس وهو يحاول إخفاء حالته :

- أوه دونـا كـلارا ، وأيـن يمكننـى الذهـاب فيمـا تظنين في هذه الساعة وهذه السن ؟ إلى المنزل بالطبع.

- اصغ لى يا مايسترو .

قالت وهى تضفى على لهجتها نبرة حميمة تـدل علـى ثقة بالمخاطب :

- استمع لنصيحتى وانتظـر قليـلا . مـن الأفضـل ألا تخرج الآن. ثمة أشياء تحدث بالخارج أتفهم ؟

- ماذا ؟ تعنين أنهم بدأوا تحركهم بالفعل؟!

- لا تنزعج يا سيدى فلا خطر عليك !

ثم استدارت إلى الشاب الواقف إلى جوارها :

- نانى ، هلا اصطحبت المايسترو إلى البو
يتناول شرابا ؟

كان نانى ابنا للموسيقار " جيبللى " أحد
كوتيس القدامى، وبينما كان يصطحب المايسترو لا
كانت دونا كلارا قرب الباب لا تزال تحاول منع
من الخروج .

وراح الشاب يشرح لكوتيس الموقف ، قال :

- ان السيد فراجيريو ، وهو محام مطلـ
الأحداث عن كثب ، قد أسرع إلى المسرح قبل دقائق
فى صحبة صديق مقرب إلى شقيق رئيس الشرط
حذرنا كلاهما من أن نسمح لأحد بمغادرة المكان
جماعة " مورزى " تنتشر فى أنحاء متفرقة علم
المدينة ، وهم على وشك التحرك إلى قلب ميلانو
مجلس المدينة محاصر تقريبا ، كما تم إخلاء العـ

أقسام الشرطة وتجريدها من وسائل النقل البخارية. حقيقة الأمر أن الموقف في غاية الخطورة يا سيدى ، وليس من الحكمة مغادرة المسرح خاصة في ملابس السهرة . الأفضل أن نظل هنا ، وهم بالتأكيد لن يفكروا في مهاجمة "سكالا"

15

بسرعة الريح شاع الخبر بين الحضور ، مخلفا في نفوسهم أثرا بالغ السوء . لم يعد الأمر مجرد مزحة أو شائعة . . كف الذين كانوا يلغطون منذ قليل ، وساد صمت ثقيل ، حافل سوى من بعض الطنين الخافت حول جروسجيموث . لا أحد استطاع أن يقرر شيئا بشأنه . كان الإرهاق قد ألم بزوجته قبل ساعة فغادرت إلى الفندق بالسيارة . فمن سيصحبه هو في رواحه خلال شوارع صار من المؤكد أنها تتأهب لحالة من الفوضى ؟ بديهي أنه

فنان ، طاعن فى السن ، أجنبى ولا مبرر من إيذائه ، ورغم ذلك كله ، فإن خروجه سينطوى على مغامرة غير محسوبة . والفندق بعيد ، فى مواجهة المحطة . أيكون عليه أن يصطحب شرطيا لحراسته ، أم ترى ذلك أسوأ وبالا عليه ؟

وخطرت لدكتور هيرش فكرة مفاجئة ، فصاح :

- دونا كلارا ما رأيك لو أننا استطعنا العثور على أحد الأشخاص شديدى الأهمية : الـ " VIP " المنتمين إلى جماعة " مورزى " أو ليس هناك أحد منهم ؟ إنه يستطيع تأمين خروجنا بسلام فى هذه الحالة ، أليس كذلك ؟

- نعم يستطيع

واستحسنت دونا كلارا الرأى ، وبدت تفكر بعمق :

- تعرف أنها فكرة رائعة ؟ وإننا لمحظوظون حقا . لقد رأيت أحدهم منذ قليل ، ليس بالضبط من " VIP " ولكنه عضو فى البرلمان . أعنى السيد " لاجانى "

نعم . سأذهب وأعرض عليه الأمر على الفور .

كان السيد لاجانى عضو البرلمان شاحب اللون ، سيئ الهندام ، يرتدى جاكت سهرة فوق قميص رث إلى حد ما ، وكانت أظافره رمادية الأطراف .

وكان معروفا بين الحضور بتورطه فى مشكلات تتعلق بأمور الزراعة ، وبندرة مجيئه إلى ميلانو ، ولذلك لم يكن قد رآه الكثيرون وجها لوجه قبل اليوم .

وفى تلك الأثناء ، وبدلا من التردد إلى البوفيه،آثر لاجانى الاختلاء إلى ذاته فى متحف الأوبرا ، قبل أن يعود إلى البهو منذ لحظات قليلة. واتخذ مجلسه فوق أريكة بأحد الأركان يدخن النازيونيلا . توجهت نحوه دونا كلارا ، ولما رآها تقترب من مجلسه ، نهض يرحب بها .

- قل لى

دون أن تستغرق وقتا فى مقدمات رسمية :

- هل أنت هنا من أجل حراستنا ؟

- حراستكم ؟ مم ؟

تساءل عضو البرلمان تاركا الدهشة تعقد حاجبيه .

- لا تسألني فلابد أنك تعرف مادمت تنتمي لجماعة"مورزى "

- آهه لو أن الأمر كذلك ، .. فأنا بالتأكيد أعرف شيئا .. بل إنى أعرفه – توخيا للصدق – قبل أن آتى إلى هنا اليوم . نعم " لسوء الحظ " أعرف أن هناك خطة تحرك !

استمرت دونا كلارا في حديثها بلهجة تقريرية دون أن تنتبه إلى عبارة " لسوء الحظ "

- إذن أصغ لى أيها العضو . أعرف أنك سترى فيما أقول شيئا كومديا إلى حد ما . ولكننا في موقف لا نحسد عليه في الحقيقة . السيد جورسجيموث متعب ويريد أن يأوى إلى فراشه . ونحن لا نعرف كيف يمكننا توصيله إلى الفندق ، فالشوارع معرضة لحالة من الاضطراب الوشيك .. لا أحد يعلم الحقيقة بالضبط .. ثمة سوء فهم .. وأى شيء

يمكن أن يحدث فى لحظة ، ومن ناحية أخرى ، ليس فى إمكاننا أن نشرح له هذه الأشـياء. ليـس مـن الفطنـة فيمـا أحسب ، فهو أجنبى كما تعرف و

قاطعها لاجانى :

- باختصـار ، إن لم أكـن مخطئـا ، تريديننـى أن أرافقـه بنفسـي ، أمنحـه حصـانتى الدبلوماسـية ، أليـس كذلك؟

قالها ثم انفجر فى نوبة من الضحك هستيرية، عاليـة طويلة ، حتى أن دونا كلارا وقفت تحدق فيه ذاهلـة . وإذ يفقد السيطرة على ضحكه أكثر ، نـدت إشـارات متواصلـة عن يده اليمنى ، كمن يريد أن يقول إنه يعرف أن من سوء السلوك أن يضحك على هذا النحو ولكن . فـى النهايـة توقف لكى يتنفس ، وراح يفسر مبررا ضحكه

- ولكن يا عزيزتى ، أنا آخر من يمكنه القيام بهذه المهمة .

قال ذلك بلهجته المتكلفة وإن كان لا يزال يهتز قليلا من الضحك :

- آخر شخص فى المسرح بإمكانه أن يحمى الموسيقار جروسجيموث ، بما فيهم مرشدى المقاعد والخدم . مركزى الرسمى ؟ هه .. ولكن ، لعلك لا تعرفين من هو الشخص الذى ستطيح به " الجماعة" قبل الجميع هنا ؟ ألا تعرفين ؟

وانتظر ردها !

- ليست عندى فكرة !

- حسن ، إنه خادمك المتواضع يا سيدتى !! سوف يصفون حساباتهم معى أنا !! ولسوف ينعمون على بالأولوية قبل غيرى .

قالت دونا كلارا ، هى التى لم تكن تحوم حول الموضوع :

- أتعنى أنك " مغضوب عليك " إن جازالقول؟

- نعم هذا ما أعنيه بالضبط !

- فجأة ؟ وهذا المساء بالذات ؟

- نعم تلك هى الحقيقة . وتحريا للدقة معك، فقد تلقيت هذا الخبر بين الفصلين الثانى والثالث ، عبر نقاش قصير مع أحدهم ولكنى أظن أنهم يخططون لذلك منذ عدة أشهر .

- حسن ، أنت على كل حال تحتفظ برباطة جأشك!

- أوه إننا مهيأون دوما لأشد الأحداث سوءا . إنها عادة بالنسبة لنا . ولتمد السماء لنا بيد العون، أما إذا لم تشأ ارادة السماء فـ ..

- أوه .. يبدو لى إذن أن مخطط الوساطة قد فشل ! سامحنى ! وأضافت وهى تنظر إليه من فوق كتفها :

- أمنياتى الطيبة ، إن كان فيها ما يشفع لك!

وقالت لمدير المسرح :

- لا أمل ! عضو المجلس لا يستطيع أن يعدنا بأى شىء . لا تقلق سأتولى بنفسى أمر جروسجيموث.

قيد مسافة ما ليست بعيدة ، كان الضيوف يتابعون النقاش صامتين أكثر الوقت ، يرهفون السمع لاختلاس ما أمكنهم. لكن أحدا منهم لم تتسع عيناه رعبا بدرجة تتجاوز عينى المايسترو كلوديو كوتيس !

فقد كان المدعو " لاجانى" هو عين الرجل الغامض الذى تحدث إليه عن أردينو! !

16

ثارت تعليقات كثيرة على أعقاب حديث كلارا الرصين مع عضو لجماعة " مورزى " وناهيك عن كونه الشخص الذى تولى أمر اصطحاب الموسيقار إلى قلب المدينة ، فقد كانت حقيقة إذن ، تلك الأقاويل القديمة حول " وفاقها التام " مع الجماعة ! على أنها بدت دوما وكأنها توجه أشرعتها بعيدا عن ضفاف السياسة ، كى تستطيع أن تحتفظ بتوازن دقيق بين كل الاتجاهات . وعلى كل

الأحوال ، لم يكن من الصعب على أحد أن يتوقع ذلك ، اعتبارا بالطراز النسوى الذى تنتمي إليه . أو ليس جليا أن امرأة مثلها كان ينبغي أن تفكر في كل شيء ، وأن تصطنع من الصداقات داخل صفوف الجماعة ما يؤكد لها دوما أنها في مركز القوة ؟! أحس كثير من النساء بالسخط عليها ، أما الرجال فقد كانوا ، على النقيض ، يشعرون بشيء من الأسف نحوها !

17

خروج جروسجيموث كان إيذانا بانتهاء حفل الاستقبال ، بقدر ما كان في الوقت نفسه دافعا على استفزاز الشعور العام . وعرض الحائط طرحت كل المبررات الاجتماعية التي قيلت . انتهى الوهم، واكتسى كل شيء بأقنعة ثقيلة من الكآبة ، كل شيء ؛ حفل الكرنفال البهيج ، الحرائر الناعمة ، فساتين

الدوكلولتيه، الستارات الخطافية ، الحلى النفيسة ، كل هذه الحصانات الاجتماعية التى تخص المناسبة . وراحت الحياة اليومية ، بكل ثقلها ، تعلن عن نفسها . ولم تكن " فترة الصوم الكبير" تتلألأ هذه المرة تحت تباشير صباح.. بل كانت ترزح تحت وطأة ليل طويل ، جاثم ، لا يكاد ينتهى .

توجهت مجموعة من الضيوف إلى الشرفة لترى. كان الشارع خاويا ، والعربات المركونة على جانبيه تبدو وكأنها هاجعة وأكثر سوادا مما هى عليه .والسائقون ! أين هم ؟ هل كانوا يتخفون فى نومهم فوق المقاعد الخلفية؟ أم تراهم ، هم الآخرون ، هربوا ليلحقوا بالتمرد ؟ كانت أعمدة الطريق مضاءة كعادتها وكل شىء نائم من حولها أو ميت . أصاخ الناس كى يسترقوا السمع إلى مقدمات انفجار بعيد ، صوت الشغب ، أو إطلاق الرصاص، أو طنطنة حاملات المدافع .

- هل جئنا ؟

صاح أحدهم .

- ماذا لو أنهم رأوا كل هذا الأضواء ؟ إنـها تعكس وجهنا لهم كالمرآة ! فارتدوا للداخل مرة أخرى وأغلقوا الأضلفة ، بينما ذهب أحدهم يبحث عن عامل الكهرباء .

وعلى الفور انطفأت الأنوار التى طالما غمرت رواق المسرح، وأحضر مرشدو المقاعد عددا من الشموع وأشعلوها فوق الأرض وكان ذلك يضغط على أرواح الحضور كنذير بالموت! وفى غمرة السأم ، جلس رجال ونساء على الأرض لنقص الأرائك ، وقد بسطوا معاطفهم الثمينة تحتهم تحاشيا لتلطيخ أنفسهم ، بينما اصطف طابور طويل أمام كابينة الهاتف الصغيرة قرب المتحف الداخلى.

انتظر كوتس دوره .

كان يريد أن يتأكد أن أردوينو يعى ، على الأقل، ما يحدق به من خطر . لم يعد حوله ثمة من يمزح : لقد نسوا كل شىء عن جروسجيموث ومذبحته ! انتظر قرابة الساعة إلا الربع . وعندما خلت عليه الكبينة

"مضاءة وبلا نوافذ "أخطأ مرتين فى طلب الرقم الصحيح، لارتعاش يده . وجرب مرة ومرة حتى ضرب الرقم الصحيح ، وانداح صوت الجرس بالطرف الآخر هادئا . تلمست أذناه حس البيت الدافئ المطمئن ، فترة من الوقت . ولكن ، لماذا لا يرد أحد ؟ هل لم يعد أردينو إلى الآن ؟ حاول أن يهدهد مخاوفه .

" يا إلهى ، لماذا لا يرد أحد ؟ أوه .. أخيرا ! ! "

- ألو

صوت أردينو النائم :

- من بحق السماء يتصل فى هذه الساعة ؟

قال الأب اللاهث :

- ألو ألو

وطوف بقلبه على الفور حس بالندم ! كان يجدر به أن يتظاهر بالهدوء ، إذ لاح له بغتة أن الخط قد يكون مراقبا . ماذا يقول له الآن ؟ ينصحه بالهرب ؟ يحذره مما يحدث حوله ؟ ولكن ماذا لو أنهم يسمعون صوته ؟

وراح يفتش رأسه بحثا عن مبرر مقبول لاتصاله . فليسأله مثلا أن يأتى إلى " سكالا " على الفور لكى يقدم فاصلا من موسيقاه ! لا ، فهذا معناه أن أردينو سيظهر لهم . يريد شيئا أكثر تفاهة؛ أنه مثلا ، نسى حافظته وأنه الآن قلق بشأنها ! أوه ، ربما كان ذلك أسوأ من أى شىء آخر . فابنه لم يفهم ما يحدث ، ولابد أن من يستمعون إلى المكالمة سيرتابون فى الأمر ويعتبرونه رمزا !

- اسمع يا أردوينو ..

لم يقولها إلا رغبة فى كسب بعض الوقت . ربما كان الشىء الأمثل أن يخبره بأنه نسى مفاتيح البوابة ، فذلك هو المبرر الوحيد المقبول لمثل هذه المكالمة المتأخرة .

اسمع . لقد نسيت مفاتيحى . وسأكون أمام البيت بعد عشرين دقيقة و ..واجتاحته عاصفة من الرعب فأمسك . ماذا لو أن أردوينو نزل لانتظاره فخرج إلى الشارع ؟ بالتأكيد هناك من يترصده خارج البيت وقد تكلف باختطافه .

فعاد يصحح ما قال :

- لا.لا.لا تنزل حتى أصل إليك . سوف تسمعنى أصفر لك .

يالى من أحمق !! ليس هناك من شىء أبسط من هذا يساعدهم فى القبض عليه !

- أردينو ، استمع جيدا . لا تنزل حتى تسمعنى أصفر لك بمقطوعة من " الكرنفال الإيطالي" أنت تعرفها طبعا ، أليس كذلك . حسنا، تذكر جيدا ! ووضع السماعة على الفور تحاشيا لأية استفسارات خطرة من جانب أردوينو . " أى نوع من الحماقة هذا الذى ارتكبته ؟ " - قال لنفسه - ، فلا يزال أردينو جاهلا بما يدور حوله فوق أنه من المحتمل قد أثار حفيظتهم بهذه المكالمة ، ومن الوارد أن يكون بينهم من يحب الموسيقى ويعرف المقطوعة، ولعله من ثم ، لحظة وصوله ، يجدهم فى انتظاره بالفعل ! لا يمكن أن يكون أكثر غباء ! هل يتصل مرة أخرى فيخبره الحقيقة؟

وبينما كان يتساءل انفتح باب الكابينـة ، وبـدا خلفـه وجه فتاة مرعوب . فخرج كوتيس قاطبا حاجبيه .

عـاد لضـوء البـهو القـابض وقـد ألفـى حالـة التداعـي المهيمنة أشد وضوحا : نساء جمدهن الشلل في مواضعهن، يلتصقن ببعضهن البعض فـوق الأرائـك، وكثـيرات خلعـن حليهن اللئلاءة وخبأنها في حقائبهن ، بينما أخريـات ، كمـا لـو أنـهن يجلسـن أمـام مـرآة ، رحـن يخففـن مـن تصفيفات شعورهن في نسب أقل لفتا للانتبـاه ، وبعضـهن كن يضبطن أغطية الرأس والبيشات بطرق غريبة ، كما لـو أنهن يردن أن يظهرن في صورة الشخص التائب أو المكفـر عن ذنب.

" ولكـن ، هـذا الانتظـار قـاتل . لا شـيء أفظـع مـن الانتظار "

" كان بالإمكان أن نتعرض لمثل هذه الحالة . لقد كنـت على يقين من أن ثمة شيئا سيحدث . كان مقررا أن نرحـل إلى " ترميزو " صباح اليوم ، لكن جيو ،ولتحل عليه لعنة

السماء ، قال أنه من المحزن أن يفوتنا افتتاح أوبرا جروسجيموث . وقلت له إنهم ينتظروننا ، ولكنه قال : لا يهم ، يمكننا ترتيب كل شىء بالهاتف . لا ، لم أكن أريد المجىء ، ثم ها أنا ذا قد أصبت بصداع نصفى. آه يارأسى المسكين "

" حسبك هذا القلق يا عزيزتى . إنهم سيتركونك بلا أذى . فلست محل اشتباه على أى حال "

" تعرفون .. البستانى الخاص بحديقتنا ، والؤيد لجماعة مورزى ، قال لى إنه رأى بعينيه قائمتهم السوداء وأكد أنها تحتوى على أكثر من أربعين ألف إسم فى ميلانو وحدها !! "

" يا إلهى .. غير معقول ، هذا فظيع ، فظيع "

" هل هناك أية أخبار ؟ "

" لا . لا أحد يعرف أى شىء "

" وهل وصل أحد ؟ "

" قلت لا . لا أحد يعرف أى شىء "

كان البعض يبتهل إلى الله فى سره ، تشابكت أياديهم كما لو أنهم لا يتعمدون ذلك ، وكان آخرون يهمسون فى أذن بعضهم البعض بلا توقف، وقد بدوا كأنهم يلتاثون بنوبة من الهذيان. كثيرون مددوا أرجلهم على الأرض ، خلعوا أحذيتهم وتهدلت أربطة أعناقهم البيضاء تحت ياقات محلولة ؛ بعضهم كان يدخن ، أو يتثائب أو يهنف.

وكان آخرون يتكلمون بصوت خفيض أو يكتبون شيئا على ظهر بطاقات البروجرام بأقلام ذهبية ، فيما أربعة أو خمسة أفراد كانوا يتبصصون من بين خصاص ضلفة الشرفة ، يتصرفون كما يتصرف الخفراء والعسس ، ومتأهبون لنقل ما يرونه بالشارع . وكان عضو الشرف ، السيد لاجانى ، لا يزال يجلس إلى أحد الأجناب ، شاحبا، فاغر العين ، يميل بكتفه إلى أمام قليلا ويدخن النازيونيلا !

18

ولكن ..فى غيبة كوتيس ، كانت تبلورت حالة المحاصرين على نحو غير متوقع . فقبيل ذهابه إلى كابينة الهاتف ، كان المدعو " كليمنتى " ؛ المهندس الذى يمتلك مصنعا للهدروليكا ، قد شوهد يتحدث إلى د . هيرش قبل أن يستقل أحد الأجناب . وخلال الحديث ، تحركا باتجاه متحف المسرح وظلا هناك واقفين فى الظلام فترة من الوقت . وبعدها عاد هيرش إلى البهو وغمغم بشىء إلى أربعة أفراد على التوالى فراحوا يتبعونه. كانو على الترتيب ؛ " كليسى " الكاتب ، "بورى" مغنى السوبرانو " برسدوتشيمى " صاحب مصنع النسيج " كونت مارتونى " الصغير . ولحقت هذه المجموعة بالسيد كليمنتى الذى كان يقف فى ظلام المتحف وحده ، وشكلوا ما يشبه المجتمع السرى الصغير . ودون مبرر واضح ، تقدم واحد

من مرشدى المقاعد وتناول أحد الشمعدانات المركونة إلى أرضية البهو ، وذهب بها حيث يقف المجتمعون فى الظلام .

هذا الاجراء ، الذى مر دون أن يلحظه أحد ، أثار فضول البعض وانزعاج الكثير لاحقا . ففى حالة كتلك يثور لأتفه الأسباب غبار الشك . حاول البعض الاقتراب منهم كى يلقى النظر على ما يفعلون ، مدعيا انعدام القصد. ولم يعد أكثر الذين ذهبوا . واعتمادا على ملامح الوجه الذى ظهر عند الباب فى تلك اللحظة ، فان هيرش وكليمنتى إما أنهيا حوارهما أو أنهما وجها الدعوة لعدد من الحضور بالانضمام إلى تجمعهم على نحو لا يسمح لأحد بالرفض . وفى دقائق معدودات ، بلغ عدد المنشقين نحو ثلاثين رجلا !

ولم يكن من العسير تفسير ما يجرى ، مادمت تلم بطبيعة الشخوص المعنية بالأمر . فقد كان كليمنتى وهيرش والآخرون يحاولون تشكيل حزب انفصالى يشايع

جماعة " موررزى " ويستقل تمام الاستقلال عن طبقة الموسرين الساقطة الماثلة أصحابها بالبهو . لقد كان معروفا للجميع أن بعضهم ، فى مناسبات سابقة ، كان يتعمد أن يبدو فى صورة المتسامح طيب القلب ، المتعاطف مع الفئة الحاكمة ، وهو مدفوع آنذاك بالخوف أكثر من صدق الطوايا . بل إن أحدا لم يندهش من موقف كليمنتى ؛ إذ أنه رغم مساعيه السلطوية ، كان له إبن منحرف يشغل الآن منصبا قياديا داخل جماعة " موررزى " وكان قد شوهد قبل وقت قصير يدخل كابينة الهاتف . وكان على المنتظرين القلقين خارجها أن يظلوا يضربون الأرض بكعوب أحذيتهم لربع ساعة أو يزيد . لعله ، وقد أدرك الخطر ، كان يتصل بهذا الابن طلبا للمساعدة . ولما لم يشأ الابن أن يظهر بنفسه ، فقد نصح الأب بأن يتصرف من تلقاء نفسه ؛ أن يكون حزبا يعلن تأييده للجماعة ، بحيث يمكن اعتباره " حزب سكالا " وعند وصولهم ، سوف تنظر الجماعة ، بالقطع بعين الاعتبار اللائق إلى

هذا الحزب المنشق، والأكثر أهمية فى كل هذا ، أن أفراده سوف ينجون بأنفسهم من الأذى . وعلى كل الأحوال، " فإن الدم أكثر كثافة من الماء "[22] على حد تعليق أحد الأشخاص .

غير أن الأمر المدهش بحق إنما كان انضمام عدد من الأشخاص الآخرين ؛ إذ كانوا ينتمون إلى عين الطبقة التى يبغضها "مورزى" ، كما أنهم متورطون ، مع غيرهم ، فى إثارة بعض المشكلات التى وفرت للجماعة حججا لائقة لنشر دعايتها أو شن هجومها . ها هم بغتة يتوحدون ، ويقفون جنبا إلى جنب عدوهم ، متنكرين لكل ماضيهم ، لكل شىء عدا ما أعلنوه توا . ورغم فداحة الثمن ، فإنهم ربما كانوا يمارسون لونا من الخداع داخل معسكر الأعداء كى يأمنوا لأنفسهم طريقا للانفلات فى اللحظة المناسبة ، فى خفاء وسرية ، وبشكل غير مباشر ، كى لا يفقدوا مكانتهم بين أرجاء العالم الأثير الذى يألفونه !

بدأت المناورات فى هدوء ، ورغم ذلك ، بدا على الفور

أن الوضوح الذى يقرر المواقف الكريمة ، هو الموقف المفضل لكلتا الجماعتين . أضيئت الأنوار مرة أخرى داخل المتحف ، وفتحت النافذة على مصراعيها ، وصار المشهد الخارجى باديا للعيان .

ولحظة أن تصل الجماعة بالميدان ، المفضى إلى المسرح ، فإنهم سيدركون ، حتما ، أن لهم أقرنا هناك يمكن الاعتماد عليهم !!

19

عندما عاد كوتيس إلى البهو ، أدرك من وهلته ما طرأ على المكان من تغيير ، عبر انعكاس ضوء المتحف الأبيض على المرايا ، وصدى الحديث الدائر هناك . غير أنه لم يعرف السبب . لماذا أضيئت الأنوار فى المتحف دون البهو؟ ماذا يحدث ؟ سأل فى النهاية بصوت مسموع :

- وما الذى يفعله هؤلاء الواقفون هناك ؟

- ماذا يفعلون ؟

تعجبت " ليزيلورى بينى " بصوتها الفرح وهى جالسة لا تزال على الأرض ومستندة بظهرها إلى جانب زوجها :

- طوبى للأبرياء يا مايسترو ! إنهم يؤسسون حزبا جديدا يا سيدى . " حزب سكالا " هؤلاء الميكافيلليون الصغار لا يضيعون الوقت سدى . أسرع يا مايسترو ، باب العضوية لا يزال مفتوحا . مذهلون هم ، أليسوا كذلك ؟ أخبرونا بأنهم لم يدخروا جهدا لإنقاذنا ، والآن راحوا يتقاسمون الغنائم ويشرعون القوانين .. لقد سمحوا لنا بإضاءة الأنوار مرة أخرى ، مذهلون حقا .. هؤلاء الخنازير الكريهة هائلة الحجم ! !

وراحت ترفع من صوتها : أقسم لو لم يحدث شيء ..

وأوقفها زوجها :

- ليزيلورى ! ! لا تعكرى صفوك . كان وجهه

باسما وعيناه مغلقتين . وكان يحرك قدميه حركة توقيعية متتابعة كما لو أنها نوع من الجذب الرياضى . عاد كوتيس يسأل والاضطراب يلم به :

- وأين دونا كلارا ؟

- أوه ، شبه المعوقة هذه التى لا تخسر شيئا ! لقد اهتدت إلى خير مخرج ولو أنه الأصعب على الإطلاق فى تقديرى . سيدة لا تهدأ لها حركة، أتفهم ؟ كلمة هنا وأخرى هناك ، وأينما مالت كفة الأحداث تميل ، لا شيء يقيدها ، لا تريح ، لا تعلق .. دور هنا ودور هناك ؛ جيئة وذهابا ، زعيمتنا هى التى لا مثيل لها ! !

ولم يكن الصواب يجانب ليزيلورى فيما تقول. فلما عادت دونا كلارا ، بعد اصطحاب جروسجيموث إلى فندقه، تولت على الفور مهام دورها القيادى وراحت توزع اهتمامها بين الفرقين بالتساوى . ولكى تؤدى هذا الدور بكفاءة معهودة عنها ، كان ينبغى عليها الادعاء بأنها لا تعرف شيئا عن الغرض الذى دفع إلى تأسيس هذا

الحزب السرى . كما لو أنها لعبة تخص الضيوف وحدهم.
لكن ذلك كان يعنى انها لا تستطيع التوقف .

- فالتوقف بين أى الفريقين ، قد يوحى باختيار محدد . غدت وراحت ، تهدئ من روع النساء اللواتى فقدن السيطرة على شعورهن تماما ، تزود المكان بمقاعد إضافية ، وتأمر بذكاء ، بدورة أخرى وفيرة من المشروبات. كانت تظلع فى دورناها بالصوانى والزجاجات، سعيا لتحقيق مكاسب شخصية فى كلا المعسكرين .

صاح فجأة ، واحد من الحراس الواقفين وراء النافذة وهو يشير ناحية الميدان . وعلى أثر إشارته اندفع ستة أو سبعة أشخاص ليروا ماذا هناك .

كلب !! كلب جرب على نحو لا يخفى على عين . كان يتسلل قادما من طريق " كاسى روتى " برأسه المنكسة .

اقترب من الحائط ثم راح يختفى تدريجيا فوق طريق " مانزونى "

- مالذى تريدنا أن نراه أيها الرجل ؟ كلب؟!!

- كـ .. كنت أحسب أن وراءه .. آ ..

استحالت حالتهم أكثر غرابة . في الخارج ، كانت الشوارع الخاوية سليمة أو تكاد على كل الأحوال . أما هنا، فقد كان الوضع أشبه بعرض لهزيمة جماعية ؛ أعداد غفيرة من الأثرياء ، الوجهاء ، ذوى النفوذ الاجتماعي ، يسايرون في استسلام موقفا ذليلا تجاه خطر موشك ، لا يزال ، على الانفجار !! وإذ كان التعب قد نال منهم ما نال وتصلبت مع الوقت أطرافهم ، راح الأمر برمته يتضح تدريجيا في رءوس بعضهم : فلو أن جماعة " مورزى " قد شرعت فعليا في شن هجمتها ، سيكون من الغريب آنئذ ألا يصل ميدان سكالا سوى نذير واحد ومن ثم من الحماقة تحمل المزيد من الرعب للاشيء !! ولهذا ، راح السيد"كوزينز " المحامى يتقدم نحو مجموعة من السيدات الرئيسات ، مهتديا بضوء الشمعدانات المتناثرة، وهو يمسك في يده اليمنى كأسا من الشمبانيا . كان

كوزينز فيما مضى معروفا مغامراته النسائية واسعة النطاق ، حتى أن بعض السيدات الكبيرات لا يزلن يعتبرنه شخصا خطيرا

- هل تسمحون لى بقليل من انتباهكم أيها الأصدقاء الأعزاء؟

قال ذلك في لهجة واثقة ، وأردف :

- ربما كان الأمر ، فى حقيقته ، هو أن معظمنا ، نحن الحاضرين هذا المساء ، إنما يجد نفسه فى " موقف حرج " ذلك إن راعينا حسن التعبير فاكتفينا بهذا الوصف - "وتوقف قليلا" . ولكن ، أو ليس من المحتمل فى الوقت نفسه - ونحن لا نعلم أى الافتراضين سيثبت أنه الصحيح _ أن تضج ميلانو بأسرها بالضحك غدا حالما يفكرون فى وضعنا هذا ؟

لحظة من فضلكم ، لا تقاطعونى ، أرجوكم، أريد أن أقيم الحقائق فى هدوء .ما الذى يجعلنا على يقين بأن الخطر وشيك ؟ ! دعونا نحصى أوجه الشك القائمة :

أولا مسألة أن أعضاء " مورزى " ورئيس البلدية، ورئيس الشرطة وممثلى الجيش قد اختفوا جميعا قبيل نهاية الفصل الثالث " وآمل أن تغفروا لى لهجتى المتهاونة" حسن، ما الذى يحول دون الظن بأنهم ملوا الاستماع إلى الموسيقى كلهم وفى وقت متقارب فانصرفوا ؟

ثانيا : الأقاويل التى ملأت الأسماع بأن " ثورة" على وشك الانفجار .

ثالثا : وهو الأمر الأكثر إزعاجا ؛ الأخبار التى تناقلتها الصحف شفاهة وأكرر " تناقلتها " على لسان واحد من أشد أصدقائى احتراما : ألا وهو السيد " فريجيرو " ، الذى انصرف مبكرا ، ولابد أنه تعمد إخفاء نفسه ، لو أن أحدا منا قد رآه . ليس هذا هو المهم ، فدعونا نسلم بالأمر الواقع . قال فريجيرو: إن جماعة " مورزى " قد شرعت فى احتلال المدينة ، وإن مجلس البلدية محاصر تماما، إلخ.. وأنا الآن أضع السؤال بين أيديكم : من يمكنه أن يدلى لفيريجيرو بهذه الأخبار ،

فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ؟ هل من المحتمل أن يتلقى صحفى معلومات هاتفية على هذه الدرجة من الخطورة والسرية فى تلك الساعة المتأخرة ؟ وممن ؟ وما هو الغرض ؟

هذا فى الوقت الذى لا نحس فيه شيئا غريبا حول المكان ، وقد تخطت الساعة الثالثة الآن . لا أصوات مزعجة ولا ضجيجا من أى نوع .

هناك بالتأكيد شك فى صحة الأمر كله .

- وما الصعوبة فى أن يحصل الواحد منا على معلومات عبر الهاتف .

- حسن .

قال كوزينز وهو يبتلع جرعة أخرى من الشامبانيا ، وأردف:

- رابع العوامل الهامة هو ما يمكن تسميته تجاوزا: صمم التليفونات ! فهؤلاء الذين حاولو الاتصال بمجلس البلدية أو البوليس يقولون إنهم لم ينجحوا فى

ذلك ، أو إنهم على أقل تقدير لم يستطيعوا الحصول على أية معلومات . حسن ، فبماذا عساك تجيب أنت ، وأنت شخص فى موضع مسئولية ، افتراضا ، عندما يتصل بك شخص مجهول أو غير محدد الصوت بالنسبة لك ، كى يسألك عن معلومات تتعلق بالشئون الداخلية للدولة ، فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ؟! ولا تهملوا كذلك أن هذا كله يحدث خلال مرحلة من أخطر المراحل السياسية حساسية ! بل إنها حقيقة أيضا أن الصحف ذاتها كانت تتكتم الأمر ، وأن هؤلاء الذين يتصلون بأصدقاء يعملون بالصحافة كانوا يطلبون رأيهم فلقد أجابنى " برتينى " الذى يعمل فى " الكوريبرى ديلا سيرا" بهذه الكلمات :

" حتى الآن .. نحن لا نعلم أى شئ على وجه اليقين "

فسألته :

" وما معنى هذا ؟ "

فقال" معناه أننا لا نعرف ما يحدث "

فقلت باصرار :

" ولكن ، هل تتوجسون قلقا من الموقف ؟ "

فأجاب " لا أستطيع أن أقول هذا ، حتى الآن على الأقل "

وتنفس كوزينز .

كانوا يصخون إليه السمع بلهفة غامرة ، كى يتمكنوا من الإيمان بتفاؤله المطلق .

اختلطت رائحة العرق بالعطور وتركزت فى دخان السجائر المتصاعد . ووصلت أصوات الأفراد المنفعلين عبر الهاتف إلى المتحف . قال كوزينز :

– لابد من اختزال معلوماتك التليفونية أو الحد منها تماما لو أمكن . فلست أحسب أن ثمة مبررا يدعونا للازعاج . فالصحف نفسها لا تعرف سوى القليل وهذا معناه أن صورة الهجوم الغاشم المزعوم – إن كان– لم تتبلور بعد . أتظنون أن جماعة " موررزى " كانت ستسمح بصدور ،، الكورييرى ديلا سيرا ،، لو أنهم بالفعل يحاصرون المدينة ؟

ضحك اثنان أو ثلاثة بين صمت الجموع .

- وليس هذا كل شىء . فالمبرر الخامس للشعور بالخطر هو انشقاق هؤلاء المتجمعين هناك"وأشار ناحية المتحف" . وربما كان من الحمق البين أن يعرضوا أنفسهم للخطر دون أن يكونوا على يقين دامغ بنجاح " موروزى " وإن كنت أرى فى الوقت نفسه ، أنهم لم يعدموا الحجج الممتازة التى من شأنها تبرير قيام مثل هذا الحزب المشبوه إذا ما أخفق التمرد على يد البوليس - وهذا إن اتفقنا مسبقا أنه سيحدث - وحسبكم أن تتأملو ما انتهى إليه خيارهم : تكييف أوضاعهم وفق الظروف المتغيرة ، مثلا، أو أنها استراتيجية اللعبة المزدوجة ، أو الانشغال الكامل برخاء سكالا وهكذا .. ! انتبهوا لما أقول ، فهؤلاء غدا .

تردد لوهلة وأمسك عن الحديث ، بينما ارتفعت ذراعه بإيماءة غير كاملة . وفى ذلك الصمت المطبق ، القصير ، ومن مسافة يصعب تقديرها بدقة ، ملأ سمعهم

دوى انفجار هائل ، صعق على أثره الجميع .

ياإلهى !

جأرت ماريو جابريللى وهى تجثو على ركبتيها ، وصاحت سيدة أخرى فى هيستيرية :

- الأطفال لقد بدأوا ! !

وتدخلت "بينى" وهى تصرخ فيهن بقوة :

- التزمن الهدوء أيتها السيدات . لم يحدث شيء . لا تتصرفن كما الخادمات !

وهنا اندفع المايسترو كوتيس للأمام ، ذاهلا ، ومعطفه ملقى فى إهمال فوق كتفه ، ويداه قابضتان على ذيل سترته الخطافية ، وأخذ يحدق بشدة فى وجه كوزينز المحامى . ثم قال فى حزم :

- سأمضى ! !

صاح كثيرون فى وقت واحد :

- إلى أين ؟

- إلى البيت . أين ينبغى على أن أذهب غير البيت؟

لا أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا ! وتحرك صوب الباب . لكنه كان يتخاطر فى مشيته كما لو أنه غارق فى السكر، وعادوا يصيحون عليه:

- الآن ؟ لا . لاانتظر . قليلا وتشرق الشمس .

كان ذلك بلا جدوى . اصطحبه اثنان .. يحملان الشموع إلى الطابق السفلى حيث فتح له البواب الناعس باب الخروج دونما اعتراض .

- اتصل بنا !

كانت آخر صيحة هتفوا بها خلفه . وبدأ كوتيس سيره دون أن يلتفت لهم وتسابقوا نحو النوافذ يتابعون الموقف من وراء خصاصها .

- ترى ماذا يحدث ؟

رأوه وهو يتجاوز شريط الترام فى خطوات خرقاء متعثرة . مضى باتجاه حديقة الميدان الرئيسى ، وتخطى صفا من العربات المركونة ، وكان يواصل سيره نحو ساحة خالية خلفها لما اندفع فجأة للأمام ، فهوى بكل ثقله .

كما لو أنه تلقى دفعة قوية من الخلف . وتناهى إلى سمعهم بالشرفة صوت ارتطام كتيم . لكن أحدا غيره لم يكن بالميدان . ظل راقدا فوق الأسفلت منكفئا على وجهه وذراعاه منفرجتان . وكان يبدو من بعيد مثل خنفساء ضخمة منسحقة !

تنفسوا آخر الأمر . كانوا صامتين تماما ، جمدهم الرعب فى أماكنهم . حتى قطع الصمت المقيم صرخة نسائية مروعة :

- لقد قتلوه !

لا حركة بالميدان . لم يظهر أحد من داخل العربات المركونة كى يساعد الرجل . بدا المكان ميتا ، قاحلا، يرزح تحت كابوس جسيم .

قال أحدهم :

– لقد أطلقوا النار عليه . سمعت صوت الطلقة بأذنى

– ما هذا الهراء ؟ لقد كان صوت ارتطام الموسيقار بالأرض !

- أقسم أنى سمعت صوت إطلاق الرصاص . مسدس آلى . أنا أعرف هذه الأنواع .

شخصت عيونهم من وراء خصاص النافذة ، وقد شعروا أن مصيرهم المشترك يتقدم نحوهم عبر بوابات المدينة !

وعلى هذا الوضع ، ظلوا ، حتى انبلج أول خيط لضوء النهار الرمادى ، فوق أسطح البنايات . وفى الخارج ، بدأ ينداح صوت فريد لراكب دراجة بخارية ، يصر فى خلاء الصبح ، ضوضاء ترام بعيد ، شبح رجل منحنى الهامة ، يتقدم نحو الميدان ويدفع عربة يد أمامه . وفى هدوء شديد شرع فى كنس الشارع ، بادئا من طريق " مارينو "... مدهش ! بضع خصلات قليلة من مقشته كانت تكفى . فبينما كان الرجل يكنس قاذورات الطريق وفضلات الأوراق ، كنس معها " الخوف " كذلك ! ولاحقا ، مر راكب دراجة آخر فعامل على قدميه ، فعربة صغيرة ، وتدريجيا .. استيقظت ميلانو !

20

ولم يحدث شيء !!

أيقظ الكناس المايسترو كوتيس الذى انتبه من غفوته لاهثا ، نهض وأخذ ينظر حوله فى دهشة . ثم التقط معطفه من الأرض ومضى وهو يترنح،لايزال باتجاه، البيت . وبينما كان ضوء الفجر يتسلل عبر الخصاص ، تقدمت نحو بهو المسرح بائعة الزهور العجوز ، بلا صوت. بدت مثل شبح لهم ، مرت بها الليلة السابقة دون أن تدرى عنها شيئا . كانت ترتدى ثوبا من التللى الأسود المكسو بالجوخ وفى يدها سلة ملأى بالزهور . وراحت تمر بين جموع الحاضرين الذين بدت على وجههم آثار تلك الليلة الطويلة . وبابتسامة مقبضة ، راحت تتقدم نحو السيدة " ليزيلورى بينى " ، وتعطيها زهرة جاردينيا رائعة الحسن !



(1) مسرح سكالا أو السكالا : هـو أشـهر مسـرح فـى ميلانو (م)

(2) الصفـائيون أو أتبـاع المذهـب الصفـائى التى ظـهر أوائل هذا القرن كمذهب مضاد للتكعبية فى الفن وسـرعان من انسحب علـى بقيـة الأنـواع الأدبيـة الفنيـة وأصحابـه ينادون بالبساطة والوضوح واجتناب التكلف والتعقيد.(م)

(3) الماكى: تسمية أطلقت علـى المقـاتلين فـى حركـة المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الألمانى

(4)هيرودس : هو ملك اليهودية عند ميلاد المسيح-

(م)

(5) فـى الأصـل (بالإيطاليـة) **carabinieri** أى القربينى ؛ الجنود حاملو القربينات أو الأسلحة النارية .

(م)

(6) هى آخر البروفات التى يجريها ممثلو المسـرحية بالملابس الكاملة لأدوارهم قبل يوم أو أثنين من العرض(م)

(7) جواكيم أو يواقيم بوتشيني ، موسيقار إيطالى شهير ولد فى " لوكا " بإيطاليا فى ديسمبر 1858 وتوفي في بروكس في 1922 . من أشهر أعماله أوبرا ((البوهيمية)) ، ((توسكا)) ، ((مدام بترفلاى))(م)

(8) نسبة إلى مدينة نابولى الإيطالية (م)

(9) أتيلا : هو ملك الهون الذى اجتاح جزءا من الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية (م)

(10) الكوارتير : أشهر مجمع موسيقى فى ميلانو

(11) الدبليس : أكبر آله فى الأسرة الكمانية (م)

(12) المرنة : مغنية الأدوار الرنانة وهو أوطأ صوت نسوى(م)

(13) إشارة ضمنية إلى هتلر .. ممثلا فى شخصية هيروس (م)

(14) المقصود تصفيق الاستحسان عند نهاية الأداء الذى يحمل الفنان على العودة إلى المسرح (م)

(15) مترجمو أو مفسرو العرض هم الراقصون الذين يبرزون معنى القطعة الموسيقية أو الدوار المسرحى بطريق التمثيل أو العزف أو الرقص (م)

(16) by Jove : هتاف يعبر عن الدهشة او التوكيد وجوبيتر هو كبير آلهة الرومان (م)

(17) أى سمات خاصة بأهل الشمال الأوربي وبخاصة فى اسكندنافيا .

(18) سيجفريد الشخصية الأساسية فى أوبرا تحمل اسمه ، ويتصف بالعنف والقوة وحب النزال . ألف شعرها وموسيقاها الموسيقار ريتشارد فاجنر ، وعرضت أول الأمر على مسرح فستشبيلهاوس فى مدينة بايرويت سنة 1876 .

(19) الأرطنسية تسمية لزهرة اليابان أو الكوبية كما تسمى أحيانا وهى للتزيين ثمارها تشبه كوب الماء . (م)

(20) أى من بالمين .

(21) الأونس : وحدة وزن تساوى 29 جراما تقريبا. (م)

(22) blood is thicker than water

ربما كانت الترجمة العامية لهذا المثل أقرب إلى الدقة من غيرها ، فهو يقابل – فى عاميتنا – المثل القائل " الدم عمره ما يبقى ميه " .

المؤلف

• دينو بوتزاتى

• ولد عام 1906 بشمال إيطاليا ف مدينة ميلانو

• عمل بالصحافة فترة طويلة

• عاصر الحربين العالميتين وكان مبعوثا خاصا إلى بعض الدول فى اوروبا وافرقيا واسيا وأمريكا ، ومراسلا صحفيا لجريدة corriere DeccAfera

• عاشق السفر وبخاصة إلى افريقيا التى كتب عنها بعض القصص

• يتمتع باسلوب يضعه فى مصاف الكتاب العالمين الكبار

• له العديد من المؤلفات فى القصة القصيرة والرواية والمسرحية

• من اعماله : رعب فى مسرح سكالا، مقتل التنين، صحراء التتار، شبح الجنوب. توفى عام 1972

• المترجم

سيد عبد الخالق

• قاص ومترجم

• صدر له الآخرون وأغنية لضحى، الصعاليك يجربون الغضب، فيض الجوارح، اساطير (لرولان بارت)














سندباد للنشر والتوزيع